الأوثان

عناصر الموضوع

مفهوم الأوثان	٢٥٤
الأوثان في الاستعمال القرآني	٢٥٥
الألفاظ ذات الصلة	٢٥٦
تاريخ وفلسفة	٢٥٨
أشهر أصنام العرب	٢٦٠
حجج عابدي الأوثان	٢٦٤
محاورات الأنبياء عن عبادة الأوثان	٢٦٩
صفات الأوثان في ضوء القرآن	٢٧٩
مظاهر تقديس العرب للأصنام	٢٨٤
عاقبة الأوثان وعابديها	٢٩٧

مفهوم الأوثان

أولًا: المعنى اللغوي:

تدور مادة (وثن) في المعاجم على معنيين: **الأول**: الكثرة والاستزادة، والثاني: الدوام والثبوت، فمن الأول قول القائل: استوثن الرجل من المال: استكثر، واستوثن النحل: صارت فرقتين صغارًا وكبارًا، وأوثن زيدًا: أجزل عطيته[(١)].

ومن الثاني عن صاحب الصحاح: «والواثن مثل الواتن، وهو الثابت الدائم»[(٢)].

و«الوثن التمثال يعبد، سواء أكان من خشب أم نحاس أم فضة أم غير ذلك، جمع أوثان ووثن، والوثني: من يتدين بعبادة الوثن، يقال: رجل وثني، وقوم وثنيون، وامرأة وثنية، ونساء وثنيات، والوثنية مذهب عبدة الأوثان»[(٣)].

ولعل وجه اتصال لفظ (الوثن) بأصل مادته اللغوي ظاهر في كثرة عدد وأنواع الأوثان التي عبدتها العرب، أما «الدوام والثبوت» فظاهر أيضًا في أن الوثن دائم في مكان ما ومستقر فيه.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

من خلال ما سبق يتضح أن الوثن واحد الأوثان، ويدور في وضعه اللغوي حول المعنيين السابقين، أما في الاصطلاح فليس في مظان التعاريف الاصطلاحية ما يروي الغليل، ويوضح المقصود، لذا لابد من استنباط تعريف من خلال ما مضى، يكون مناسبًا في هذا الصدد، فالوثن في الاصطلاح يعني: «كل معبود اتخذه المشركون إلهًا من دون الله، حجرًا كان، أو شجرًا، أو معدنًا»، ولعل هذا التعريف يوضح المراد، والله أعلم.

فالعلاقة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي: وثيقة جدًا فالأوثان متعددة وكثيرة من ناحية العدد، وثابتة – غالبًا – من ناحية المكان؛ إذ قلما تنقل من مكان لآخر.

---

(١) انظر: القاموس، الفيروز أبادي، ٦/ ٢٧٦، بصائر ذوي التمييز له أيضًا، ٥/ ١٥٩، الصحاح، الجوهري، ٢/ ١٦١٦.

(٢) الصحاح، الجوهري، ٢/ ١٦١٦.

(٣) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ٢/ ١٠٢٣.

الأوثان في الاستعمال القرآني

وردت الأوثان في القرآن الكريم (٣) مرات فقط [١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
اسم جمع	٣	﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ [الحج:٣٠]

وقد أطلق القرآن الوثن على: ما كان له جثة من خشب أو ذهب أو فضة أو غير ذلك، ينحت وينصب فيعبد من دون الله[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٧٤٢، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب الواو ص ١٤٠٠.

(٢) انظر: عمدة الحفاظ، السمين الحلبي، ٤/ ٢٨٣، المفردات، الراغب الأصفهاني، ص٨٥٣، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٥/ ١٥٩.

الألفاظ ذات الصلة

١ الأصنام:

الأصنام لغة:

واحدها: أصنام، وهو ما وينحت من خشب، ويصاغ من فضة ونحاس، فالجمع أصنام، وهو ما اتخذ إلهًا من دون الله[١].

الأصنام اصطلاحًا:

هي كل ما يعبد من دون الله.

الصلة بين الأوثان والأصنام:

هناك من لم يفرق بينهما فاعتبرهما واحدًا[٢]، وهناك من فرق، ومنهم ابن الأثير حيث قال: «الفرق بين الوثن والصنم: أن الوثن كل ما له جثة معمولة من جواهر الأرض أو من الخشب أو الحجارة، كصورة الآدمي تعمل، وتنصب فتعبد، والصنم: الصورة بلا جثة»[٣].

٢ الأنصاب:

الأنصاب لغة:

«النُصُب: ما ينصب ليعبد من دون الله، أو ليذبح عنده الذبائح تقربًا إليه أو إلى الأصنام»[٤].

الأنصاب اصطلاحًا:

قال الكفوي: «الأنصاب أي: الأصنام التي نصبت للعبادة»[٥].

الصلة بين الأوثان والأنصاب:

الأوثان تشمل كل ما يعبد من دون الله، أما الأنصاب فهي الحجارة التي ليست لها صورة معينة، كان يعبدها الجاهليون من دون الله تعالى لذبحهم القرابين عندها، وبهذا يظهر الفرق بينها وبين الأوثان.

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ١٢/ ٣٤٩.
(٢) انظر: المصباح المنير، الفيومي، ٢/ ٦٤٧، الصحاح، الجوهري، ٦/ ٢٢١٢.
(٣) النهاية في غريب الحديث، ٥/ ١٥١.
(٤) القاموس القويم، إبراهيم عبد الفتاح، ٢/ ٢٦٧.
(٥) الكليات، الكفوي، ١/ ٢٠٣.

٣ الأزلام:

الأزلام لغة:

الأزلام: جمع زلم، والزلم: القدح لا ريش عليه، و«زلم» بالفتح أو «زلم» بالضم، والزلم والقلم واحد، وقلمه إذا قطعه، يقال: زلم أذنه وأنفه زلمًا: أي: قطعهما[١].

الأزلام اصطلاحًا:

والأزلام هي القداح أو السهام التي جعلت للاستقسام[٢]، وإنما سميت القداح بالأزلام؛ لأنها زلمت، أي: سويت، وقيل: حصًى بيضٌ كانوا يضربون بها، وكانت العرب تستقسم بها عند الأصنام، والاستقسام طلب القسم، أي: معرفة ما يقسم للإنسان ويقدر[٣].

الصلة بين الأوثان والأزلام:

الفرق بينهما واضح، فالأوثان ما يعبد من دون الله، أما الأزلام فهي القداح التي تستخدم في الجاهلية لمعرفة ما يقسم للإنسان.

٤ التماثيل:

التماثيل لغة:

جمع تمثال، والتمثال: الصورة، ومثل له الشيء: صوره حتى كأنه ينظر إليه، يقال: مثلت، بالتثقيل والتخفيف، إذا صورت مثالًا، والتمثال: الاسم منه[٤].

التماثيل اصطلاحًا:

أصل التمثال الشيء المصنوع مشابهًا لشيء من مخلوقات الله سبحانه، يقال: مثلت الشيء بالشيء إذا جعلته مشابهًا له[٥].

الصلة بين الأوثان والتماثيل:

التماثيل هي الأجسام المصورة على هيئة إنسان أو حيوان أو طائر أو كائن ما، عبد هذا المصور أو لم يعبد، أما الأوثان فغالبًا تعبد من دون الله تعالى .

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ١٢/ ٢٦٩، أساس البلاغة، الزمخشري، ص ١٩٤.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي، ١١/ ١٣٨، جامع البيان، الطبري، ٩/ ٣١١.
(٣) انظر: الميسر والأزلام، عبد السلام هارون، ص٥٥.
(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ١١/ ٦١٣.
(٥) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٣/ ٤٨٦.

تاريخ وفلسفة

سيطوف بنا البحث في أسطره التالية بتأريخ موجز لعبادة الأوثان وبداية ظهورها، وانتقالها إلى العرب، وهذا فيما يلي:

أولًا: بدء عبادة المجسمات لدى الأمم:

يكاد يكون من المشتهر تاريخيًا أن عبادة الأصنام ظهرت أول ما ظهرت على أيدي قوم سيدنا نوح عليه السلام، وعن طريقهم انتشرت عبادتها في بقية أرجاء المعمورة، وتابعهم على ذلك من جاء بعدهم، لكن حقيقة الأمر بخلاف ذلك، فمن خلال البحث والدراسة تبين أن مبدأ ظهور الأصنام على الساحة كان بعد زمن سيدنا آدم عليه السلام.

وفي ذلك يقول الإمام الفخر الرازي: «اعلم أنه لا دين أقدم من دين عبدة الأصنام، والدليل عليه أن أقدم الأنبياء الذين وصل إلينا تاريخهم على سبيل التفصيل هو نوح عليه السلام، وهو إنما جاء بالرد على عبدة الأصنام، كما حكى الله عنه ذلك... وذلك ليدل على أن دين عبدة الأصنام قد كان موجودًا قبل نوح عليه السلام»[1].

وهذا كلام يؤيده ما ذكره نسابة العرب «هشام بن محمد الكلبي» حيث يروي قصة ظهور الأصنام بعد آدم عليه السلام مباشرة فيقول: «أول ما عبدت الأصنام أن آدم عليه السلام لما مات جعله بنو شيث بن آدم في مغارة في الجبل الذي أهبط عليه آدم بأرض الهند، ويقال للجبل: «نوذ»، وهو أخصب جبل في الأرض..

ثم ذكر قولًا عن ابن عباس رضي الله عنهما يقول فيه: « وكان بنو شيث يأتون جسد آدم في المغارة فيعظمونه، ويترحمون عليه، فقال رجل من بني قابيل بن آدم: يا بني قابيل! إن لبني شيث دوارًا[2] يدورون حوله ويعظمونه، وليس لكم شيء، فنحت لهم صنمًا، فكان أول من عملها...» .

ثم يقول هشام: أخبرني أبي قال: كان ود، وسواعٌ، ويغوث، ويعوق، ونسر قومًا صالحين، ماتوا في شهر فجزع عليهم ذوو أقاربهم، فقال رجل من بني قابيل: يا قوم هل لكم أن أعمل لكم خمسة أصنام على صورهم، غير أني لا أقدر أن أجعل فيها أرواحًا؟ قالوا: نعم!! فنحت لهم خمسة أصنام على صورهم ونصبها لهم، فكان الرجل يأتي أخاه وعمه، وابن عمه فيعظمه ويسعى حوله، حتى ذهب ذلك القرن الأول، ثم جاء قرن آخر فعظموهم أشد من

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٣/ ٣٧.

(٢) الدوار: -بتخفيف الواو المفتوحة-: الطواف، يقال: دار دورًا: طاف حول الشيء. المعجم الوجيز ص ٢٣٧، ولعل المقصود بالدوار هنا: الشيء نفسه الذي يدورون حوله.

تعظيم القرن الأول، ثم جاء من بعدهم القرن الثالث فقالوا: ما عظم أولونا هؤلاء[١] إلا وهم يرجون شفاعتهم عند الله، فعبدوهم وعظم أمرهم، واشتد كفرهم، فبعث الله إليهم إدريس عليه السلام نبيًا فدعاهم فكذبوه، فرفعه الله إليه مكانًا عليًا، ولم يزل أمرهم يشتد حتى أدرك نوحٌ عليه السلام فبعثه الله نبيًا»[٢].

يتضح لنا من خلال ما سبق مبدأ ظهور عبادة الأوثان، وأنها قديمة من بعد زمن آدم عليه السلام.

ويكاد العلماء أن يجمعوا على أن أول من أدخل الأصنام في الجزيرة العربية هو «عمرو بن لحي الخزاعي».

لكن اختلفوا فيما بينهم في تحديد السبب الباعث لهذا الرجل على إدخال الأصنام الجزيرة، فمن قائل: إن عمرو بن لحي كان له رئيٌ[٣] من الجن، فأمره أن يذهب بالأصنام إلى العرب في وقت حجهم البيت ليعبدوها ففعل[٤]، ومن قائل: إن عمرًا مرض مرضًا شديدًا، فقيل له: إن بالبلقاء من الشام حمة[٥] إن أتيتها برأت، فأتاها فاستحم بها فبرأ، ووجد أهلها يعبدون الأصنام، فقال: ما هذه؟ فقالوا: نستسقي بها المطر، ونستنصر بها على العدو، فسألهم أن يعطوه منها، ففعلوا، فقدم بها مكة ونصبها حول الكعبة[٦]، وقيل: غير ذلك[٧].

وفي الصحيح: (أن عمرو بن لحي هو أول من سيب السوائب[٨]، ووصل الوصيلة[٩]..) إلخ.

فهو أول من أدخل الأصنام شبه الجزيرة.

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم:

(١) جرت العادة في اللغة باستعمال «هؤلاء» و«أولئك» للعقلاء، وهي هنا للأصنام، ولكن ورد استعمالها أيضًا فيما لا يعقل على سبيل القلة، كما ورد في أشعار العرب. أفاده محقق كتاب الأصنام، أ/ أحمد زكي باشا ص ٥٢.

(٢) انظر الأصنام ابن الكلبي ص ٥١ بتصرف.

(٣) كانت العرب تقول: «فلان له رئي من الجن» إذا ألف الجني إنسانًا، وخبره ببعض الأخبار، وبما وقع ويقع من الأسرار، انظر: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، د/ جواد علي ٦/ ٧٣٧ بتصرف.

(٤) الأصنام ص ٥٤، ٥٨ بتصرف شديد.

(٥) الحمة: -بفتح المهملة وتشديد الميم المفتوحة هي العين الحارة- يستشفى بها الأعلاء والمرضى. مختار الصحاح ص٩٠.

(٦) الأصنام ص ٨.

(٧) للمزيد يراجع: السيرة النبوية للإمام عبد الملك بن هشام ١/ ١٠١.

(٨) السائبة هي: الدابة التي تسيب في المرعى، فلا ترد عن حوض ولا علف، وذلك إذا ولدت خمسة أبطن. مفردات الراغب الأصفهاني ص٤٣١.

(٩) الوصيلة: الناقة البكر، تبكر في أول نتاج الإبل، ثم تثنى بعد ذلك بأنثى، وكانوا يتركونها لآلهتهم، إن وصلت إحداهما بالأخرى ليس بينهما ذكر، أو الشاة إذا ولدت ذكرًا وأنثى قالوا: وصلت أخاها، فلا يذبحون أخاها من أجلها. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير٣/ ١٢٨، المفردات، الراغب الأصفهاني ص٨٧٣.

(رأيت عمرو بن عامر بن لحي الخزاعي يجر قصبه[1] في النار، وكان أول من سيب السوائب)[2].

والحديث رتب هذا العذاب الشديد في النار، لكون عمرو هو أول من أدخل الأصنام شبه الجزيرة، ولكونه باء بإثم العرب أجمعين لمَا تسبب في الشرك، وبذر بذوره الأولى، والله أعلم.

أشهر أصنام العرب

عبدت العرب أصنامًا كثيرة، حتى لقد كان لكل دار من دور مكة صنم تعبده، ناهيك عن الأصنام التي يعبدونها في أسفارهم، وفي الأمكنة التي يحلون بها، فإذا ارتحلوا تركوها خلف ظهورهم ومضوا لحالهم، ومن ثم تعددت الأصنام بتعدد القبائل، بل بتعدد الدور والأسفار والأشخاص...

لكن البحث لا يتطرق لها كلها، بل يكتفي بالتعريف بأشهرها، والتي ذكرها الله تعالى، وستعرض في عجالة؛ خشية الملل والإطالة.

١. هُبَل.

كبير آلهة العرب، يحج إليه الناس من كل فج عميق، ولفظ «هبل» مشتق من لفظ أرامي.

معناه: الروح[3].

يذكر ابن الكلبي أن «أول من نصبه خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر، وكان يقال له: هبل خزيمة»[4].

لكن أبا الوليد الأزرقي يذكر عن ابن إسحاق: أن أول من نصبه هو عمرو بن لحي فيقول: «البئر التي كانت في جوف الكعبة كانت على يمين من دخلها، وكان عمقها

(١) قصبه: بضم فسكون أي: أمعاءه وجمعه أقصاب، وعليه فالقصب اسم للأمعاء كلها، وقيل: هو ما كان أسفل البطن من الأمعاء، انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر ٤/ ٦٧ بتصرف.

(٢) أخرجه البخاري، واللفظ له، في صحيحه، كتاب المناقب، باب قصة خزاعة، رقم ٣١٥١، ٦/ ١٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء، رقم ٢٨٥٦، ٤/ ٢١٩.

(٣) عبادة الأوثان، عكاشة عبد المنان الطيبي ص ٨١- ٨٢.

(٤) الأصنام ص ٢٨.

ثلاثة أذرع، يقال: إن إبراهيم وإسماعيل حفراها ليكون فيها ما يهدى للكعبة، فلم تزل كذلك حتى كان عمرو بن لحي، فقدم بصنم يقال له: «هبل» من «هيت» من أرض الجزيرة، وكان هبل من أعظم أصنام قريش عندها، فنصبه على البئر في بطن الكعبة، وأمر الناس بعبادته»[1]، وكان هبل من عقيق[2] أحمر، على صورة إنسان مكسور اليد اليمنى، أدركته قريش كذلك، فجعلوا له يدًا من ذهب[3]، وكانوا يضربون بالقداح[4] عنده، يستقرئون بها الأمور المغيبة كما يزعمون[5]، ومثل ذلك فعل عبد المطلب جد النبي صلى الله عليه وسلم حين أراد أن يذبح ابنه وفاء لنذره الذي نذر، والقصة مشهورة[6].

ولعله اتضح لنا بعض ما كان يفعله أهل الجاهلية من أمور تنم عن جهل وبعد عن الحق، حيث كانوا يستقرئون الغيب من حجارة صماء، لا تملك من أمر نفسها شيئًا.

٢. اللَات.

كان هذا الصنم من أعظم أصنام قريش أيضًا، حيث كانوا يتقربون إليه بالقرابين والذبائح، وهو أحد الأصنام المذكورة في القرآن في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾ [النجم: ١٩].

وفي أصل اشتقاق لفظ «اللات» يقول الإمام الطبري: «اشتقاقه من الله، ألحقت فيه التاء فأنثت، كما قيل: عمرو للذكر، وللأنثى عمرة، وعباس وعباسة، فكذلك سمى المشركون أوثانهم بأسماء الله -تعالى ذكره-، وتقدست أسماؤه فقالوا: من الله اللات، ومن العزيز العزى، وزعموا أنهن بنات الله، تعالى الله عما يقولون وافتروا علوًا كبيرًا»[7].

وذكر ياقوت الحموي رأيًا آخر في أصل اشتقاق اللفظ، فيقول: «يجوز أن يكون من لاته يليته، إذا صرفه عن الشيء، كأنهم يريدون أن يصرف عنهم الشر...»[8].

وأيًا ما كان الأمر فالمراد أن: المشركين نسبوا إلى الله ما هو منه براء، وأوغلوا في الافتراء حين نسبوا إليه الأنثى وجعلوا لهم

(١) تاريخ مكة للأزرقي ١/ ١٤٠ بتصرف.
(٢) العقيق: حجر كريم أحمر يعمل منه الفصوص، يكون باليمن وسواحل البحر الأحمر. المعجم الوجيز ص ٤٢٨.
(٣) الأصنام ص ٢٨.
(٤) القداح: جمع قدح، بكسر القاف وسكون الدال، وهو قطعة من الخشب مستوية، قليلة العرض، متوسطة الطول، تجعل فيها حزوز تدل على نصيب صاحبها من الجزور وغيره وكانت تستعمل في الميسر المعجم الوجيز ص ٤٩١.
(٥) للمزيد يراجع: تاريخ مكة للأزرقي ١/ ١٤٠، ١٤١ بتصرف.
(٦) انظر في ذلك: البداية والنهاية ابن كثير ٢/ ٢٢٨، والسيرة النبوية ابن هشام ١/ ١٧٦.
(٧) جامع البيان، الطبري ١١/ ٥١٩ بتصرف.
(٨) معجم البلدان للحموي ٥/ ٤، ٥.

الذكر.

هذا وإن المؤرخين وكتاب السير يكادون أن يجمعوا على أن أصل عبادة اللات تعود إلى «أن رجلًا يهوديًا ممن مضى كان يقعد على صخرة لثقيف، يبيع السمن للحجيج إذا مروا فيلت سويقهم[١]، وكان ذا غنم، فسميت: صخرة اللات، فلما مات، قال لهم عمرو بن لحي: إن ربكم كان اللات، فدخل في جوف الصخرة»[٢]، وعندئذ عبدوها واتخذوها إلهًا من دون الله تعالى.

ومن تعظيم العرب لهذا الصنم أنهم كانوا دائمًا يقسمون به في أيمانهم، بالإضافة إلى صنم «العزى» فيقول أحدهم: «واللات والعزى لأفعلن كذا وكذا.. إلخ».

ويروى عن بعضهم أنه كان يقسم باللات والعزى فقال[٣]:

وباللات والعزى ومن دان دينها

وبالله، إن الله منهن أكبر

أرأيت معي كيف ضلت العرب ردحًا من الزمان بتعبدهم لهذه الأصنام وتقربهم إليها، حتى امتن الله عليهم وعلينا بنعمة الإسلام، وأعظم بها من نعمة.

٣. العزى.

ومن الأصنام التي كانت العرب تعظمها صنم «العزى»، وهي تأنيث الأعز أو العزيز، ومن تعظيم العرب لها أنهم كانوا يسمون أبناءهم بها، فسموا عبد العزى[٤]، وهذا أمر شهير عنهم.

قيل: إن أول من دعا إلى عبادتها هو عمرو بن لحي والحارث بن كعب[٥].

وعلى كلٍ فالمقصود أن العرب عبدت العزى من دون الله، ولا يؤثر في ذلك تحديد أول من دعا إلى عبادتها.

هذا وقد اختلف العلماء في تحديد ماهية صنم العزى ووصفه:

فعن مجاهد قال: «العزى شجيرات»[٦].

ووافقه أبو الوليد الأزرقي حيث يقول: «كان العزى ثلاث شجرات بنخلة»[٧].

وقال الطبري: «قال آخرون: كانت العزى حجرًا أبيض»[٨].

ووافقهم ابن الكلبي في ذلك[٩].

(١) لت الرجل السويق ونحوه لتًا: خالطه بسمن أو غيره، والسويق: طعام يتخذ من مدقوق الحنطة والشعير، والجمع أسوقة. انظر: المعجم الوجيز ص ٥٥١ (لت)، ص ٣٣٠ (ساق).

(٢) تاريخ مكة للأزرقي ١/ ١٥٠، وبلوغ الأدب في معرفة أحوال العرب، الآلوسي ١/ ٢٠٣، والأصنام، ابن الكلبي ص ١٦.

(٣) البيت قاله الشاعر أوس بن حجر في ديوانه ص ٣٦.

(٤) الأصنام ص ١٧، ١٨ بتصرف.

(٥) انظر: تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام للإمام، ابن الضياء المكي ص ٧٤.

(٦) جامع البيان، الطبري ١١/ ٥٢٠.

(٧) تاريخ مكة ١/ ١٥٠.

(٨) جامع البيان، الطبري ١١/ ٥٢١.

(٩) في الأصنام ص ١٨.

وحكى الطبري رأيًا ثالثًا فيقول: «قال آخرون: كان بيتًا بالطائف تعبده ثقيف»[١].

ولقد جمع بين هذه الآراء أحد المعاصرين فقال: «والرأي المعقول المقبول هو أن العزى صنم، له بيت، وأمامه غبغب، أي: خزانة- يضع فيها العباد المؤمنون بالعزى هداياهم ونذورهم لها، أما الشجيرات الثلاث فإنها شجيرات مقدسة أيضًا ؛ لأنها في حرم العزى، وشجر الحرم شجر مقدس لا يجوز قطعه؛ ولذلك كان أهـل مكة يتجنبون مس شجر الحرم بسوء، ويحذرون من أراد ذلك بسوء العاقبة»[٢].

وبهذا يتم الجمع بين الآراء جميعها، ويتضح أن «العزى» هي مجموع ذلك كله، والله أعلم.

٤. مناة.

حظي صنم «مناة» هو الآخر بمثل ما حظيت به اللات والعزى من عبادة قريش، وتعظيمهم وتقديسهم إياه «وكانت العرب جميعًا تعظمه، وتذبح حوله، وكانت الأوس والخزرج ومن ينزل المدينة ومكة وما قاربهما من المواضع يعظمونه ويذبحون له ويهدون، ولم يكن أحد أشد إعظامًا له من الأوس والخزرج، وكان منصوبًا على ساحل البحر من ناحية «المشلل» بقديد بين مكة والمدينة»[٣].

هذا ولم يذكر أحد من العلماء سر جعل هذا الصنم على ساحل البحر دون بقية الأصنام، إلا ما ذكره بعض المعاصرين من «أن العرب كانت تذبح الذبائح عند مناة، وكانوا يفعلون ذلك ليستمطروا عندها الأنواء تبركًا بها، ويتبين من ذلك أن هذا الموضع كان مقدسًا، وقد خصص بإله ينشر السحب، ويرسل الرياح فتأتي بالأمطار لتغيث الناس، وإن لهذا الإله صلة بالبحر وبالماء، ولذلك أقيم معبده على ساحل البحر»[٤]، ولأنهم كانوا يذبحون عندها الذبائح استنزالًا للمطر، قال بعض العلماء: «إنما سميت مناة؛ لأن دماء النسائك كانت تمني عندها، أي: تراق»[٥] ومن شدة تعظيم العرب لهذا الصنم أنهم ما كانوا يميلون، وينحرفون عن طريقهم إذا ساروا من جانبه حتى لا يستدبروه، أو يكون خلف ظهورهم إعظامًا وتقديسًا له.

وهكذا ضل العرب جميعًا بعبادة هذه الأحجار وتقديسها، وأفنوا أعمارهم هباء في تعظيمها، ولقد عبدت العرب أصنامًا كثيرة غير هذه الأربعة، إلا أنها لم تحظ

(١) جامع البيان، الطبري ١١/ ٥٢١.
(٢) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي ٦/ ٢٤٥ بتصرف.
(٣) الأصنام ص ١٣.
(٤) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٦/ ٢٤٧ بتصرف.
(٥) الكشاف ٤/ ٤٢٣.

بالشهرة الواسعة مثل ما حظيت به هذه الأربعة، أمثال «ود، وسواع، ويغوث، ويعوق... وغيرها» إلا أني اكتفيت بأكثرها شهرة وذيوعًا، وأضربت عن غيرها صفحًا تحاشيًا للإطالة.

حجج عابدي الأوثان

عبد المشركون الأوثان من دون الله تعالى، واحتجوا في عبادتهم هذه بعدة حجج وأسباب، تطرق البحث لبعضها فيما سبق، ويتطرق البحث هنا للبعض الآخر مستشهدًا عليه ببعض الآي التي ورد فيها، وهي كما يلي:

أولًا: تلبيس إبليس عليهم:

لا شك أن إبليس عليه اللعنة أصل كل شر، وأساس كل معصية وضلال، والمشركون نالوا من إضلاله وإغوائه أكبر حظ، وأوفر نصيب، فزين لهم الشيطان أعمالهم في عبادتهم الأوثان، وهذا السبب هو أصل لما بعده من أسباب عبادة الأصنام، من تقليد للآباء، وابتغائهم العزة في عبادتها، وجلب المحبة والخصب والرزق... ونحو ذلك من أسباب وأوهام، ومن ثم فلن أقف معه طويلًا، بل أشير فقط إلى مجمل الآيات.

وذلك مثل قوله تعالى: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ

﴿وَيُمَنِّيَنَّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١١٧-١٢٠].

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠-٩١].

وقوله تعالى: ﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ [مريم: ٤٤].

وقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: ٢٠]...

والآيات كثيرة، وهي في مجملها تفيد أن الشيطان للإنسان بالمرصاد، يأمره بكل شر، من خمر وميسر وأنصاب وأزلام،... ويصده عن كل خير وطاعة لله تعالى، من توحيد وصلاة وذكر... وكل قربى لله رب العالمين، ولذلك فإنه يتوعد البشر ويمنيهم الأماني الفارغة، ولا شك أنها أمانٍ باطلة كاذبة، لكن لا يعلم البشر بكونها كذلك إلا في الآخرة بعد فوات وقت التنبه والإدراك.

ولا أدل على ذلك من ذكر الله تعالى في الآيات السابقة بعضًا من الأفعال القبيحة، ثم وصفها بقوله ﴿مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾، ويفسر الإمام الطبري هذه الآية فيقول: « ﴿رِجْسٌ﴾، أي: إثم ونتنٌ سخطه الله، وكرهه لكم ﴿مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾.

يقول: شربكم الخمر، وقماركم على الجزر، وذبحكم للأنصاب، واستقسامكم بالأزلام، من تزيين الشيطان لكم، ودعائه إياكم إليه، وتحسينه لكم، لا من الأعمال التي ندبكم إليها ربكم، ولا مما يرضاه لكم، بل هو مما يسخطه لكم ﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾ يقول: فاتركوه وارفضوه ولا تعملوه ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، أي: لكي تنجحوا فتدركوا الفلاح عند ربكم بترككم ذلك»[(١)].

كما تفيد الآيات أيضًا أن: إبليس تحقق ظنه على الناس -وبخاصة المشركون- حين تأثروا بوسوسته، وبادروا إلى العمل بما دعاهم إليه من الإشراك والكفران، وتقديم القرابين والنذور للآلهة من دون الله تعالى.

هذا والملاحظ على الآيات المباركات أمور:

الأول: أن ورود التعبير عن الوسواس هنا بتعبيرين: «الشيطان» و«إبليس»، يلحظ فيه معنيان، معنى «البعد عن كل خير وهدى»، وهذا مستفاد من الفعل« شطن» أصل كلمة «شيطان»، أما لو كان من «شاط أو شيط» أي: احترق، فهو أيضًا كذلك؛ لأنه يحترق غضبًا؛ حيث إنه مخلوق من نار[(٢)].

(١) جامع البيان، الطبري ١٠/ ٥٦٤.
(٢) المفردات، الراغب ص ٤٥٤.

كما أنه يلحظ من التعبير بإبليس معنى «الإبلاس» وهو«الحزن الشديد المعترض من شدة اليأس»[1]، فأبليس -عليه اللعنة- آيس ومطرود من رحمة الله تعالى، ولو لم يكن فيه إلا هذان الوصفان لكان كافيًا في البعد عنه، والتحذير من شره ووسوسته.

الثاني: ورود التعبير في التحذير من عداوة الشيطان في بعض الآيات بالفعل المضارع ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ﴾ للدلالة على تجدد هذا بالنسبة للشيطان مع أوليائه، فهو لا ييأس أبدًا، فيغير من أساليبه، وينوع من طرق إغوائه، حتى يصل إلى مقصوده من إضلال الناس، وإيقاعهم في الشرك والمعاصي، نسأل الله تعالى العفو والعافية.

الثالث: التعبير بالاسم في وصف عصيان الشيطان، في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾ [مريم: ٤٤].

يدل على دوام واستمرار عصيانه لربه سبحانه، ومن ثم فلن يرجى منه خير ألبتة، وعليه فينبغي الحذر منه غاية الحذر، حيث إنه العدو الألد لبني البشر جميعًا.

ثانيًا: تقليد الآباء والأجداد:

من أعظم مهام الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم محاربة العادات والتقاليد المخالفة للتوحيد، ولم يلق أحد منهم عنتًا وأذى أكثر من عنت محاربة الأعراف وتقليد الآباء والأسلاف، فهذا هود عليه السلام يجابهه قومه، ويردون دعوته بقولهم: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠].

وهذا صالح عليه السلام أيضًا يحارب موروث قومه عن آبائهم وأجدادهم، فيعترضون عليه أيضًا بمثل قولهم: ﴿أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [هود: ٦٢].

وهذا موسى عليه السلام يحاربه قومه، وينافحونه في دعوته لهم، ويردون عليه بمثل ما قال السابقون، فيصرخون في وجه نبيهم قائلين له ولأخيه هارون: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٧٨].

وهذا مسك ختامهم محمد صلى الله عليه وسلم يجابهه قومه بمثل ما اعترض السابقون على أنبيائهم، فهم كما قال القرآن عنهم- بعد ذكر عدد من أنواع شركهم ووثنيتهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۚ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: ١٠٤].

وكما قال أيضًا: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۚ

(١) المصدر نفسه ص ١٤٣.

﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

وهذه الآيات في عمومها تشير إلى هذا الداء الخطير الذي أصاب الأمم والأجيال المتعاقبة، ومقصوده ومعناها قريب وواضح، فمثلًا يذكر تعالى في الأخيرة منها أنه «إذا قيل لهؤلاء الكفرة من المشركين: اتبعوا ما أنزل الله على رسوله، واتركوا ما أنتم فيه من الضلال والجهل، قالوا في جواب ذلك: بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا من عبادة الأصنام والأنداد ونحوها، ثم يقول الله تعالى منكرًا عليهم: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ أي: الذين يقتدون بهم ويقتفون أثرهم ﴿لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ أي: ليس لهم فهم ولا هداية!!».

وهكذا يعاني الدعاة في كل عصر ومصر من محاربة المألوف والعادة لصعوبة نقل الناس وإبعادهم عن هذه.

الموروثات المخالفة للشرع والدين، ولكن مع توفيق الله تعالى والصبر تذلل كل الصعاب، وتتجاوز كل المحن والإحن.

ثالثًا: ابتغاء العزة عندهم:

من الأسباب أيضًا كون المشركين يبتغون العزة لدى معبوديهم من الأوثان، وسبحان الله! أين هذه العقول التي تتطلب العزة والرفعة من حجارة صماء، لا تملك مثقال ذرة من نفع لأنفسها، فضلًا عن عابديها.

وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١-٨٢]

وهنا يقول تعالى ذكره: واتخذ هؤلاء المشركون من قومك يا رسول الله آلهة يعبدونها من دون الله؛ لتكون هؤلاء الآلهة لهم عزًا، يمنعونهم من عذاب الله، ويتخذون عبادتها عند الله زلفى، ورد الله تعالى زعمهم هذا بقوله: ﴿كَلَّا﴾ أي: ليس الأمر كما ظنوا وأملوا من هذه الآلهة التي يعبدونها من دون الله، في أنها تنقذهم، وتنجيهم من عذاب الله، ومن سوء ما أراده بهم ربهم، ولكن سيكفر الآلهة في الآخرة بعبادة هؤلاء المشركين يوم القيامة إياها، وكفرهم بها: قولهم لربهم: ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ [القصص ٦٣].

فجحدوا أن يكونوا عبدوهم أو أمروهم بذلك، وتبرءوا منهم، وذلك كفرهم بعبادتهم[1].

رابعًا: محبتها:

اعتقد المشركون في أوثانهم أنها تجلب المحبة، ومن ثم بادلوها نفس الشعور أو أكثر، فأحبوها محبة تفوق محبتهم لخالقهم

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٨٠.

ورازقهم، وفي ذلك يقول الله: ﴿أَشَدُّ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

والأنداد -كما يقول الربيع- هي الآلهة التي تعبد من دون الله، يقول: يحبون أوثانهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبًا لله، أي: من الكفار لأوثانهم(١).

خامسًا: اعتقاد جلب الرزق:

من الأسباب الأكيدة لدى عباد الأوثان: اعتقادهم فيها أنها تجلب الرزق لهم، والإنسان بطبعه يحب المال والاستكثار منه، لكنه يضل حينما يعتقد في حجر أو شجر أنه يكون سببًا في جلب الرزق أو المال له.

ولقد نعى القرآن الكريم بطريق التصريح على هؤلاء الذين عطلوا عقولهم واعتقدوا في آلهتهم جلب الرزق، وبين لهم أنها لا تملك مثقال ذرة من ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾ [العنكبوت: ١٧].

وقوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [النحل: ٧٣].

وكذلك بطريق السؤال التقريعي أو التوبيخي الموجه لمن يعتقد في هذه الآلهة خيرًا أو رزقًا، كما في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٤٠].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ﴾ [سبأ: ٢٤].

والآيات في مجملها توضح أن الله تعالى له الأمر كله، وبيده الخير كله، من رزق ونفع وخير وبركة ونماء وإحياء وإماتة... ونحو ذلك، لا شريك له ولا ضد ولا ند، فعلام يضل هؤلاء ويعبدون غيره؟!

سادسًا: اعتقاد الشفاعة لهم عند الله:

يعتقد بعض المشركين أنها تشفع لهم عند الله تعالى، وأنها تقربهم عنده تعالى زلفى، وصرح القرآن عنهم بذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

والمراد: «أن الذين اتخذوا من دونه أولياء، أي: آلهة وأصنامًا، يقولون: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله، وذلك التقريب هو الشفاعة في قول المفسرين، والزلفى: القربى»(٢).

(١) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٢٤٩ بتصرف.

(٢) التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٥٧٠ بتصرف.

بل ذكر القرآن في موضع آخر تصريحهم بشفاعة آلهتهم لهم، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾[يونس: ١٨].

ورد القرآن عليهم هذا الادعاء الباطل بقوله تعالى: ﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨].

وهنا يأمر الله تعالى «نبيه عليه السلام أن يقررهم ويوبخهم: أهم يعلمون الله بأنباء من السماوات والأرض لا يعلمها هو؟ وذكرت السماوات؛ لأن من العرب من كان يعبد الملائكة والشعرى»[(١)].

وهذا في الدنيا، أما يوم القيامة تكون الحسرة الكبرى والندامة العظمى لعابدي الأوثان حين لا يجدون ما رجوه فيها من شفاعة وإنقاذ من العذاب، ويوقنون أنهم كانوا على باطل، وفي ذلك يقول الله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤].

وهذا يوم الحسرة والندم، ولات حينئذ مندم.

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ١١١ بتصرف.

محاورات الأنبياء عن عبادة الأوثان

حفل القرآن الكريم بكثير من محاورات الأنبياء مع أقوامهم حول عبادة الله الواحد الأحد الفرد الصمد، ونبذ عبادة الأوثان، وسيعرض البحث لبعض من هذه المحاورات فيما يلي:

أولًا: محاورات سيدنا نوح عليه السلام مع قومه:

لقد حكى الله تعالى عن قوم نوح أنهم عبدوا الأصنام، واتخذوها آلهة من دونه تعالى، متابعين في ذلك أسلافهم، فأرسل الله إليهم نوحًا عليه السلام داعيًا إياهم لنبذ عبادتها لكنهم آثروها على عبادة الله تعالى، ولم يكتفوا بذلك بل وصوا أبناءهم بعدم سماع دعوة نوح عليه السلام، ورد دعوته في فيه، ودارت حورات كثيرة بين نوح عليه السلام وقومه ذكرها القرآن، ونظرًا لأن البحث موسوعي لا يستطيع أن يأتي على هذه الآيات كلها، ويقف معها آية آية، لكن يكفينا ذكرها والإشارة إليها مجملة -كما هو منهج البحث- ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٥٩-٦٣].

ففي هذه الآيات يبرز الحوار واضحًا جليًا، فكلما ذكر نوح عليه السلام قولًا راجعه فيه قومه، ووصفوه بالضلال هنا لدعوته إياهم لترك عبادة الأوثان.

وفي ذلك يقول ابن كثير: «قوله: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي: في دعوتك إيانا إلى ترك عبادة هذه الأصنام التي وجدنا عليها آباءنا... فرد عليهم: ما أنا بضال، ولكن أنا رسول من رب كل شيء ومليكه، ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وهذا شأن الرسول، أن يكون بليغًا فصيحًا، ناصحًا بالله، لا يدركهم أحد من خلق الله في هذه الصفات...

ثم يذكر تعالى إخبارًا عن نوح عليه السلام أنه قال لقومه: لا تعجبوا من هذا، فإن هذا ليس بعجب أن يوحي الله إلى رجل منكم، رحمة بكم ولطفًا وإحسانًا إليكم، لإنذاركم، ولتتقوا نقمة الله، ولا تشركوا به»[1].

وبعد كل هذه الحوارات والمناقشات لم يستجب له قومه، بل عارضوه وجادلوه، وردوا دعوته في وجهه، وتذكر آيات سورة هود طرفًا آخر من هذه المحاورات، في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: ٢٥-٣٠].

وفيها يذكر الله طرفًا من محاورة نوح عليه السلام مع قومه، ويبين مدى شفقته عليهم في دعوته إياهم إلى التوحيد بعد نبذ الشرك وعبادة الأوثان، وبيان أنه يخاف عليهم عذاب يوم أليم، فردوا عليه بقولهم: ما نراك يا نوح إلا آدميًا مثلنا في الخلق والصورة والجنس، كأنهم كانوا منكرين أن الله يرسل من البشر رسولًا إلى خلقه، وأضافوا أيضًا: وما نراك اتبعك إلا الذين هم سفلتنا من الناس، دون الكبراء والأشراف، فيما نرى ويظهر لنا، وما نتبين لكم علينا

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٣٢ بتصرف يسير.

من فضل نلتموه بمخالفتكم إيانا في عبادة الأوثان إلى عبادة الله وإخلاص العبودية له، فنتبعكم.

ويحاورهم رسولهم بعد تكذيبهم له قائلًا: يا قوم أرأيتم إن كنت على علمٍ ومعرفةٍ وبيان من الله لي ما يلزمني له، وما يجب علي من إخلاص العبادة له، وترك إشراك الأوثان معه فيها...، ثم يتساءل منكرًا عليهم موقفهم هذا: أنأخذكم بالدخول في الإسلام، وقد عماه الله عليكم؟![1].

وأيضًا يقول الله تعالى حكاية عنهم: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣].

وهذه الآية وردت ضمن قصة نوح عليه السلام في السورة التي أفردت باسمه في القرآن، والمتأمل في الآيات وما قبلها يجد أنها تصف قوم نوح بأنهم فعلوا جرائم عظيمة، وأنهم اتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارًا، وأنهم مكروا مكرًا آخر عظيمًا، وهو قولهم: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾.

وهذا ما أكده الفخر الرازي بقوله: «المكر الكبار هو: أنهم قالوا لأتباعهم: ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا﴾ فهم منعوا القوم من التوحيد، وأمروهم بالشرك، ولما كان التوحيد أعظم المراتب لا جرم كان المنع منه أعظم الكبائر، فلهذا وصفه الله تعالى بأنه كبار»[2].

وقيل: المكر الكبار هو تحريشهم سفلتهم على قتل نوح عليه السلام.

وقيل: هو تغريرهم على الناس بما أوتوا من المال والولد، حتى قال الضعفة: «لولا أنهم على الحق لما أوتوا هذه النعم»..

وقيل: غير ذلك[3].

وأيًّا ما كان الأمر فالمراد: أن قوم نوح عليه السلام عبدوا الأصنام من دون الله تعالى، وسموها بهذه الأسماء؛ لأنها كانت لقوم صالحين، ظهر فيهم الصلاح في زمن نوح عليه السلام فماتوا، ونشأ بعدهم قوم يقتدون بهم في العبادة، فأشار عليهم إبليس بأنهم إذا صوروهم على هيئة تماثيل كان ذلك أنشط لهم في العبادة، ففعلوا، ثم نشأ قوم من بعدهم، فقال لهم إبليس: إن الذين من قبلكم كانوا يعبدونهم فاعبدوهم.. فعبدوهم.

وهذا ما رواه الإمام البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه ذكر أصنام قوم نوح عليه السلام فقال عنها: «.. أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابًا،

(١) جامع البيان، الطبري ١٥/ ٢٩٩ بتصرف وتلخيص.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٣٠/ ١٤٣.

(٣) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٤٢٦.

وسموها بأسمائهم ففعلوا، فلم تعبد، حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عبدت »[1].

ومع كون قوم نوح عليه السلام لم يستيجوا لهم، إلا أنه لم يرضخ لذلك، بل نوع لهم أساليب الدعوة وأوقاتها ووسائلها علهم يستجيبون، على نحو ما وصفه الله تعالى بقوله عن نوح عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ [نوح: ٥-٩].

حتى إنهم ضجوا وصرخوا في وجهه عليه السلام بقولهم: ﴿يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝٣٢ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [هود: ٣٢-٣٣].

لكن نوحًا عليه السلام لم يرضخ لهم، بل استمر في دعوته، فآمن به من آمن فكان من الناجين، وكفر من كفر فكان من الهالكين الغاوين.

ثانيًا: محاورات سيدنا إبراهيم عليه السلام مع قومه:

ذكر القرآن الكريم محاورة إبراهيم عليه السلام لأبيه وقومه على قسمين:

القسم الأول: محاورات خاصة بإبراهيم عليه السلام مع أبيه، **والقسم الثاني:** محاورة إبراهيم عليه السلام مع قومه أو مع قومه وأبيه معًا، وسيكون الحديث **أولًا** بما يتعلق بشأن محاورة سيدنا إبراهيم عليه السلام مع أبيه، في مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٧٤].

أرجح الأقوال في بيان المراد بـ« آزر»: أنه اسم أبي إبراهيم عليه السلام؛ وذلك لأن الله تعالى سماه بهذا الاسم، ولا شيء فوق كلام الله تعالى، فضلًا عن أن الرسول صلى الله عليه وسلم سماه هو الآخر آزر، فيما ورد صحيحًا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (**يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة، وعلى وجه آزر قترة وغبرة ....**) الحديث[2]، فسماه النبي صلى الله عليه وسلم آزر أيضًا[3].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب (ودًا ولا سواعًا ولا يغوث..)، ٨/ ٦١.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: (واتخذ الله إبراهيم خليلًا)، رقم ٢٩٩٥، ٥/ ٣٣٥.

(٣) لباب التأويل، الخازن ٢/ ١٢٥ بتصرف. والقترة المذكورة في الحديث معناها: ما يغشي الوجه من الكرب، والغبرة ما يعلوه

والضلال هو العدول عن الطريق المستقيم، ويضاده الهداية.

قال تعالى: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ﴾ [الإسراء: ١٥].

ويقال: الضلال لكل عدول عن المنهج عمدًا كان أو سهوًا، يسيرًا كان أو كثيرًا، فإن الطريق المستقيم الذي هو المرتضى صعب جدًا[١].

وعلى هذا فالمعنى: إني أراك وقومك في خطأ وعدول عن الطريق المستقيم لعبادتكم الأصنام من دون الله تعالى، وهذا الخطأ بين واضح لكل ذي لب وعقل مستقيمين.

هذا ولقد اشتمل كلام إبراهيم عليه السلام «على ذكر الحجة العقلية على فســاد قول عبدة الأصنام من جهتين:

الأولى: أن قوله: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾ يدل على أنهم كانوا يقولون بكثرة الآلهة، إلا أن القول بكثرة الآلهة باطل بالدليل العقلي المفهوم من قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

الثانية: أن هذه الأصنام لو حصلت لها قدرة على الخير والشر لكان الصنم الواحد كافيًا، فلما لم يكن الواحد كافيًا دل ذلك على أنها -وإن كثرت- لا نفع فيها ألبتة[٢].

وهكذا أبطل سيدنا إبراهيم عليه السلام مذهب الوثنيين بالبرهان الساطع والدليل القاطع، وبخاصة إذا نظرنا إلى الآيات التالية لهذه الآية، وفيها من الحجج والبراهين الواضحة ما يغني عن التعليق عليها.

وهكذا وصل إبراهيم عليه السلام إلى ما يريد من أقرب طريق، وأسلك سبيل، فينبغي على الدعاة أن يترسموا هذا الخطى، ويسيروا في ضوئه، فيلينوا في دعوتهم ولا يعبسوا في وجوه من يدعونهم؛ حتى ترتفع بهم دعوتهم، ويصلوا بها إلى الغاية المنشودة، وهذا ما أمر الله به رسوله صلى الله عليه وسلم -والأمر للرسول أمر لأمته ما لم يرد دليل على التخصيص- في قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

هذا وإن من أعظم الحوارات القرآنية التي ينبغي أن يتعلمها الأبناء في محاوراتهم مع آبائهم، وكذلك الدعاة مع مدعويهم ما ذكره الله تعالى بقوله: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ

من الغبار، وقيل غير ذلك. انظر فتح الباري ٨/ ٣٥٨.

(١) المفردات، الراغب ص٥٠٩.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ١٣/ ٣٤.

يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾ [مريم: ٤١-٤٨].

فهذه الآيات تحمل في مجملها أدبًا جمًا، وخلقًا رفيعًا في تعامل الأبناء مع الآباء مهما كانوا مخالفين لهم، وحتى لو كانوا على طريق الكفر والعصيان، ولن يصل الآباء المسلمون اليوم إلى هذه الدرجة، ومع ذلك نجد الإباء والجفاء والنفور من الأبناء في تعاملهم مع آبائهم سواء أكانوا صالحين أم طالحين، اللهم إلا من رحم ربي، نسأل الله تعالى الهداية والرشاد لأبنائنا وجميع أبناء المسلمين، اللهم آمين.

ومن آيات القسم الثاني: التي عرضت لمحاجة إبراهيم مع قومه:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٥١].

إلى أن قال سبحانه: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾ [الأنبياء: ٦٩-٧٠].

فهذه الآيات تصور مشهدًا من مشاهد قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام ومحاوراته مع قومه، وتحمل في طياتها كثيرًا من الجوانب العظيمة والتربوية في الحوار الهادف، حيث إن إبراهيم عليه السلام خاطب قومه بلغة الحوار الهادئ، وسألهم عن حقيقة هذه التماثيل التي يعبدونها من دون الله تعالى قائلًا:

« ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٢].

والعكوف: عبارة عن اللزوم والاستمرار على الشيء، والمراد: ما هذه الأصنام التي أنتم مقيمون على عبادتها؟

﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٣].

أجابوه بهذا الجواب الذي هو العصا التي يتوكأ عليها كل عاجز، والحبل الذي يتشبث به كل غريق، وهو التمسك بمجرد تقليد الآباء، أي: وجدنا آباءنا يعبدونها فعبدناها اقتداء بهم ومشيًا على طريقتهم، وهكذا يجيب كل المقلدة.

وأجابهم الخليل عليه السلام بقوله: لقد كنتم أنتم وآباؤكم في خسران واضح ظاهر لا يخفى على أحد ولا يلتبس على ذي عقل، فإن قوم إبراهيم عبدوا الأصنام التي لا تضر ولا تنفع، ولا تسمع ولا تبصر، وليس بعد هذا الضلال ضلال، ولا يساوي هذا الخسران خسران، ثم لما سمع أولئك

مقالة الخليل قالوا: ﴿أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٥]؟

أي: أجاد أنت فيما تقول أم أنت لاعب مازح؟ فقال مضربًا عما بنوا عليه مقالتهم من التقليد: بل ربكم رب السماوات والأرض الذي خلقهن وأبدعهن، وأنا على ذلكم الذي ذكرته لكم من الشاهدين العالمين به المبرهنين عليه.

فجاء إبراهيم حين أتوا به فاستفهموه: هل فعل ذلك لإقامة الحجة عليه في زعمهم، ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣].

أي: قال إبراهيم مقيمًا للحجة عليهم، مبكتا لهم: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾، مشيرًا إلى الصنم الذي تركه، ولم يكسره، فسألوهم إن كانوا ممن يمكنه النطق، ويقدر على الكلام، ويفهم ما يقال له، فيجيب عنه بما يطابقه، أراد عليه الصلاة والسلام أن يبين لهم أن من لا يتكلم، ولا يعلم ليس بمستحق للعبادة، ولا يصح في العقل أن يطلق عليه أنه إله.

فأخرج الكلام مخرج التعريض لهم بما يوقعهم في الاعتراف بأن الجمادات التي عبدوها ليست بآلهة؛ لأنهم إذا قالوا: إنهم لا ينطقون، قال لهم: فكيف تعبدون من يعجز عن النطق، ويقصر عن أن يعلم بما يقع عنده في المكان الذي هو فيه؟

وذلك أقطع لشبهته وأدفع لمكابرته، وقيل: أراد إبراهيم عليه السلام بنسبة الفعل إلى ذلك الكبير من الأصنام أنه فعل ذلك؛ لأنه غار وغضب من أن يعبد وتعبد الصغار معه، إرشادًا لهم إلى أن عبادة هذه الأصنام التي لا تسمع ولا تبصر، ولا تنفع ولا تدفع، لا تستحسن في العقل مع وجود خالقها وخالقهم.

ثم قالوا بعد أن نكسوا مخاطبين لإبراهيم: لقد علمت أن النطق ليس من شأن هذه الأصنام.

فقال إبراهيم مبكتًا لهم، ومزريًا عليهم: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ [الأنبياء: ٦٦].

بنوع من أنواع الضرر، ثم تضجر عليه السلام منهم، فقال: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾[الأنبياء: ٦٧].

وفي هذا تحقير لهم ولمعبوداتهم، والتأفف: صوت يدل على التضجر، أليس لكم عقول تتفكرون بها، فتعلمون هذا الصنع القبيح الذي صنعتموه... »[(١)].

وهكذا حاور سيدنا إبراهيم عليه السلام قومه، لكنهم قد تمكنت الوثنية منهم، فلم يجد الحوار معهم نفعًا، ولم يفدهم شيئًا، ولم يكن عندهم من مكافأة لنبيهم بعد كل

(١) فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٤٨٦ بتصرف وتلخيص.

هذه الحوارات الهادئة الهادفة إلا إضرام النار له، وإلقاؤه فيها، ولكن الله تعالى لم يتركه وحده، ونجاه من مؤامرتهم، فأمر النار فكانت بردًا وسلامًا.

ثالثًا: محاورات موسى عليه السلام مع قومه:

من المعلوم أن قوم موسى عليه السلام كانوا أصحاب جدال ومراء، ونفوس أبية، تأبى أن تنصاع للحق بيسر وسهولة وسرعة، ولقد ذكر القرآن لهم أكثر من موقف يدلل على هذه الطبيعة المتمردة.

ومن هذه المواقف: انتهازهم فرصة غياب موسى عليه السلام مدة مواعدة ربه لتلقي التوارة، فاستضعفوا أخاه هارون عليه السلام وقام السامري بجمع حليهم وصنع لهم منه عجلًا جسدًا، يصدر صوتًا إذا مر فيه الهواء، ولما رجع موسى عليه السلام ورأى ما حدث غضب غضبًا شديدًا لما حدث، وقام بإهلاك العجل، ودعاهم محاورًا إياهم، ومجددًا ما اندرس من أمر التوحيد لديهم، وإلى عبادة الله الواحد الأحد.

وهذا ما ذكره القرآن في أكثر من موطن[1]، وسيكون التعليق على مجملها.

ومن هذه المواطن: ماذكره الله تعالى بقوله: ﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ٨٣ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ٨٤ قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ٨٥ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي ٨٦ قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ ٨٧ فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ٨٨ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا ٨٩ وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ مِن قَبۡلُ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي ٩٠ قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ ٩١ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ٩٢ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي ٩٣ قَالَ يَبۡنَؤُمَّ لَا تَأۡخُذۡ بِلِحۡيَتِي وَلَا بِرَأۡسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَمۡ تَرۡقُبۡ قَوۡلِي ٩٤ قَالَ فَمَا خَطۡبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ٩٥ قَالَ بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضۡتُ قَبۡضَةٗ مِّنۡ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذۡتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي ٩٦ قَالَ فَٱذۡهَبۡ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ وَإِنَّ لَكَ مَوۡعِدٗا لَّن تُخۡلَفَهُۥۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِفٗاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفٗا

(١) ذكرت قصة العجل إجمالاً أو تفصيلاً في ثمانية مواطن من القرآن الكريم في سور: البقرة/ ٥١، ٥٤، ٩٢، ٩٣، والنساء/ ١٥٣، والأعراف/ ١٤٨، ١٥٢، وطه/ ٨٨.

﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٨٣-٩٨].

ففي هذه الآيات الكريمة يتجلى الحوار البناء في أبهى صوره، وتبين لنا الآيات مدى بلاهة بني إسرائيل في عبادتهم العجل، «وهذا من بلادتهم، وسخافة عقولهم، حيث رأوا هذا الغريب الذي صار له خوار، بعد أن كان جمادًا، فظنوه إله الأرض والسماوات، أفلا يرون أن العجل لا يتكلم ويراجعهم ويراجعونه، ولا يملك لهم ضرًا ولا نفعًا، فالعادم للكمال والكلام والفعال لا يستحق أن يعبد وهو أنقص من عابديه، فإنهم يتكلمون ويقدرون على بعض الأشياء من النفع والدفع بإقدار الله لهم»[1].

ولم تقتصر سخافة عقول بني إسرائيل على هذا الموقف فقط، بل إنهم عادوا إلى الوثنية، وطلبوها من نبيهم صراحة، في موقف لا يمكن لعقول الفطناء أن يذهلوا فيه عن صاحب الفضل، ومولي النعم سبحانه وتعالى، فبعد أن أنجاهم الله تعالى من عدوهم فرعون، ومروا على وثنيين طلبوا من موسى عليه السلام مباشرة أن يجعل لهم إلهًا يتعبدون له مثل هؤلاء، ولا زالت أقدامهم ملطخة بالطين مبتلة من أثر إنجاء الله لهم من عدوهم الألد...

ذكر القرآن ذلك في قوله تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٨-١٤٠].

وسبحان الله العظيم، بهذه السرعة جحد بنو إسرائيل نعمة المنعم سبحانه، فما هي إلا لحظات والعدو كان يطاردهم، فإذا بهم يطلبون آلهة غير الذي نجاهم، وأنقذهم بعد الموت المحقق، ولا غرو في ذلك، فهذه هي طبيعة بني إسرائيل المتمردة، وهذه هي عادتهم مع أنبيائهم، الأمر الذي حدا ببعض المفسرين أن يقول: إن الغرض من سياق ذلك «أن يعلم حال الإنسان، وأنه كما وصف ظلوم كفار، جهول كنود[2]، إلا من عصمه الله، وكذلك لتسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم مما رأى من بني إسرائيل بالمدينة»[3].

أقول: أما الأول فنعم، وأما الثاني فلا، وذلك لأن السورة الكريمة مكية[4]، ومعنى هذا أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥١١.

(٢) كنود: أي كفور، يقال: كند فلان النعمة، أي: كفرها وجحدها، وبابه دخل، فهو كنود، وامرأة كنود أيضًا . يراجع: مختار الصحاح للإمام محمد بن أبي بكر الرازي ص ٢٦٥.

(٣) الكشاف ٢/ ١٤٤ بتصرف.

(٤) تقريب المأمول في ترتيب النزول، الجعبري ص٤.

يكن قد رأى من يهود المدينة شيئًا؛ لأنه لم يكن قد هاجر إليها بعد، اللهم إلا إذا عني بالماضي: الاستقبال، فيحمل قوله: «مما رأى» على «مما سيرى»، والله أعلم.

والظاهر من مقالة بني إسرائيل لموسى عليه السلام: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ أنهم استحسنوا ما رأوه من آلهة أولئك القوم، فأرادوا أن يكون ذلك في شرع موسى عليه السلام، وفي جملة ما يتقرب به إلى الله تعالى، وإلا فبعيد أن يقولوا لموسى عليه السلام: اجعل لنا صنمًا نفرده بالعبادة، ونكفر بربك، فعرفهم موسى عليه السلام أن هذا جهل منهم، إذ سألوا أمرًا حرامًا فيه الإشراك في العبادة، ومن ثم يتطرق بهم إلى إفراد الأصنام بالعبادة والكفر بالله عز وجل[1].

لكن من يعلم طبيعة بني إسرائيل المتمردة لا يستبعد صدور مثل هذا القول منهم؛ لذلك رد موسى عليه السلام قولهم هذا في أفواههم على الفور، راميًا إياهم بالجهل، فقال يخاطبهم: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ «فهذا وصف لهم بالجهل على أتم وجه، حيث لم يذكر له متعلقًا ولا مفعولًا؛ لتنزيله منزلة اللازم، أو لأن حذفه يدل على عمومه، أي: «تجهلون كل شيء» فيدخل فيه الجهل بالربوبية بالطريق الأولى، وأكد ذلك بـ «إن» في «إنكم» وتوسيط «قوم» وجعل ما هو المقصود بالإخبار وصفًا له وهو «تجهلون» ليكون كالمتحقق المعلوم»[2].

هذا ولقد تحاور موسى عليه السلام وعلل ما نهاهم عنه بقوله: ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾ أي: «إن هؤلاء العاكفين على هذه الأصنام، الله مهلكٌ ما هم فيه من العمل ومفسده، بإثابته إياهم عليه العذاب المهين، ﴿وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من عبادتهم إياها فمضمحل؛ لأنه غير نافعهم عند مجيء أمر الله وحلوله بساحتهم، ولا دافعٌ عنهم بأس الله إذا نزل بهم، ولا منقذهم من عذابه إذا عذبهم في القيامة، فهو في معنى ما لم يكن»[3].

ومن البدهي أن هذا السؤال لم يكن قد صدر من بني إسرائيل جميعهم، بل من بعضهم «وإنما نسب إلى الجميع لموافقة بعضهم بعضًا في ذلك، فكأنه قد صدر من جميعهم»[4]. والله تعالى أعلى وأعلم.

(١) تفسير ابن عطية ٢/ ٤٤٧ بتصرف.

(٢) روح المعاني، الآلوسي ٥/ ٤٠ بتصرف.

(٣) جامع البيان، الطبري ١٣/ ٨٣ بتصرف.

(٤) قصص القرآن من آدم عليه السلام إلى أصحاب الفيل، محمد بكر إسماعيل ص ١٩٤ بتصرف.

صفات الأوثان في ضوء القرآن

من القواعد المقررة أن «التخلية مقدمة على التحلية» والقرآن الكريم سلك مع المشركين هذه الطريقة، فقدم ما يبين حقيقة معبوداتهم، وأنها لا تملك أي وسيلة من وسائل الإدراك أو النفع أو دفع الضر عن نفسها، فضلًا عن عابديها، فكيف يعبدونها من دون الله تعالى ؟! ثم دعاهم إلى عبادته وتوحيده سبحانه.

والبحث هنا سيوضح هذه القضية من خلال ما يلي:

أولًا: نفي العقل والنطق والسمع والبصر عنها:

نفى القرآن العقل صراحة عن الآلهة التي عبدها المشركون من دون الله، ونفي العقل عنها هو بيت القصيد، والأصل لما بعده؛ إذ ما فائدة السمع والبصر والنطق من غير العقل؟!

فهو وحده كافٍ في نفي ألوهية هذه الأوثان، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ [الزمر: ٤٣].

وهنا «يقول تعالى ذاما المشركين في اتخاذهم شفعاء من دون الله، وهم الأصنام والأنداد، التي اتخذوها من تلقاء أنفسهم بلا دليل ولا برهان، وهي لا تملك شيئا من الأمر، بل وليس لها عقل تعقل به، ولا سمع تسمع به، ولا بصر تبصر به، بل هي جمادات أسوأ حالًا من الحيوان بكثير»[1].

ونفى القرآن عن الأوثان أيضًا السمع والبصر والنطق... ومن ثم فلم يكن لديها أي سبب من أسباب العبادة، فعلام يعكف هؤلاء الوثنيون على عبادتها ودعائها من دون الله تعالى ؟!

ولقد مر بنا آنفًا في محاورة إبراهيم عليه السلام مع أبيه ما وصف به الأوثان مخاطبًا إياه في قوله تعالى: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤٢].

وكذلك ما ورد في قوله تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝١٩١ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ إلى أن قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ۝١٩٧ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٧-١٩٨].

والمراد: قل للمشركين يا رسول الله: وإن تدعوا الذين تدعون من دون الله إلى الهدى لا يسمعوا، والهدى على هذا الوجه ما فيه رشد ونفع للمدعو، وذكر ﴿إِلَى الْهُدَىٰ﴾ لتحقيق عدم سماع الأصنام، وعدم إدراكها؛

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ١٠٢.

لأن عدم سماع دعوة ما ينفع لا يكون إلا لعدم الإدراك.

ولهذا خولف بين قوله هنا: ﴿لَا يَسْمَعُوا﴾ وقوله في الآية السابقة: ﴿لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾ [الأعراف: ١٩٣].

لأن الأصنام لا يتأتى منها الاتباع؛ إذ لا يتأتى منها المشي الحقيقي ولا المجازي، أي: الامتثال»[(١)].

ثانيًا: عدم قدرتها على دفع الضر أو جلب النفع:

أكثر القرآن الكريم هذا الوصف بالنسبة للأوثان، حتى أربت مواطن الحديث عن هذا الوصف على عشرة مواطن، وتنوعت فيها الأساليب، فمنها: ما ورد بصيغة الخبر، مثل قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨].

وقوله تعالى: ﴿يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنفَعُهُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ ۖ لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾ [الحج: ١٢-١٣].

ومنها: ما ورد بصيغة النفي، مثل قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [طه: ٨٩].

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٣].

ومنها: ما ورد بصيغة النهي، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٦].

أما ما ورد بصيغة السؤال فكثير، ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [المائدة: ٧٦]... وغيرها من الآيات.

ويلحظ على هذه الآيات جميعًا عدة أمور:

أولها: تفيد الآيات كلها صراحة عدم قدرة الأوثان على دفع الضر عن نفسها، فضلًا عن عابديها.

ثانيها: يلحظ في بعضها تقديم نفي الضر على النفع، والبعض الآخر العكس، وإنما يقدم الضر على النفع؛ لأن التحرز عن الضر أهم من تحري النفع[(٢)]، أو هو من قبيل درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة، أو التخلية قبل التحلية.

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ٢٢٥ بتصرف.

(٢) تفسير القاسمي ٣/ ١٩٢ بتصرف.

وإنما قدم النفع على الضر في آيات؛ لأن جلب النفع محبب إلى النفس ومرغوب، والله أعلم.

ثالثها: تنوع الصيغ في بيان هذه الصفة للدلالة على كمال الإقناع وإقامة الحجة، فمن لم يقتنع بالأسلوب الخبري نفعه أسلوب النفي أو النهي أو السؤال... وقلبنا أساليب القرآن حتى يوقن ويهتدي، وإلا قامت عليه الحجة والبرهان، والله أعلم.

رابعها: الآيات تفيد في مجملها إخبار المشركين أنه «لا يستطيع أن يضركم بمثل ما يضركم الله به من البلايا والمصائب في الأنفس والأموال، ولا يقدر أن ينفعكم بمثل ما ينفعكم الله به من صحة الأبدان، وسعة الأرزاق، فإن الضار والنافع هو الله تعالى، لا من تعبدون من دونه، ومن لم يقدر على النفع والضر لا يكون إلهًا»[1]، وعليه فمن لا يملك شيئًا منهما لا يصلح للإلهية على الإطلاق!.

ومما يدخل في نفي جلب النفع: عدم استطاعة الأصنام جلب الرزق لأحد من الخلق على الإطلاق، كما صرح بذلك في قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [النحل: ٧٣].

وكذلك يدخل فيه نفي النصرة عنها، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ [يس: ٧٤-٧٥]. والله أعلم.

ثالثًا: بيان أنها لا تستطيع أن تخلق شيئًا، بل هي مخلوقة لله رب العالمين:

من الصفات التي وصف بها القرآن الأوثان، ورد بها على عابديها بيان أنها مخلوقة ومربوبة لله رب العالمين، فهي لا تستطيع أن تخلق شيئًا على الإطلاق، ولا تملك مثقال ذرة من ذلك، فكيف تملكه لعابديها! وجاء هذا الرد في آيات كثيرة من القرآن الكريم، منها: قوله تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الأعراف: ١٩١].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: ٢٠-٢٢].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ [الحج: ٧٣].

وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا

(١) لباب التأويل، الخازن ٢/ ٦٧.

﴿حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٣]... والآيات في هذا الشأن وفيرة ومتنوعة، مما يدل على أهمية هذا الموضوع، واعتناء القرآن به.

والله تبارك وتعالى يجلي لنا في هذه الآيات بعضًا من صفات الأصنام، ويبين حقيقتها لعابديها ولجميع المؤمنين، ومن أوضح صفاتها أنها مخلوقة ومربوبة لله رب العالمين أو أنها مصنوعة بأيدي عابديها، فهم الذين نحتوها، واتجهوا إليها بالعبادة «والمقصود إقامة الحجة على أن الأوثان لا تصلح للإلهية، فهي لا تقدر على خلق أي شيء على الإطلاق»(١).

والأوثان لا تصلح للإلهية لأن « من حق المعبود أن يكون خالقًا لعابده لا محالة»(٢).

فالآيات ترد على عبدة الأوثان ببيان أوصافها لهم علهم يثوبون لرشدهم، ويرجعون عن غيهم ويتركون عبادتها إلى عبادة الله تعالى.

وهكذا جلى الله تعالى حقيقة الأصنام، وبين ماهيتها وكنهها، وأنها أحقر المخلوقات؛ إذ أنها لا تستطيع حتى دفع الضر عن نفسها، ولا تستطيع النصرة فضلًا عن كونها مخلوقة.. إذًا فلم يبق شيء يعبدها عابدوها من أجله، فكيف يتوجهون إليها بالعبادة والدعاء؟! اللهم لا يفعل ذلك إلا المغفلون والدهماء.

هذا والملاحظ على الآيات هنا: أنها جاءت بعدة أوصاف للأوثان، وهي:

الوصف الأول: كونها لا تخلق شيئًا على الإطلاق، فضلًا عن كونها مخلوقة مربوبة لله رب العالمين، أو ينحتها العابدون بأيديهم، وليس قوله تعالى: ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا﴾ تكرارًا لما سبقه من قوله: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ لأن « المذكور هناك أنهم لا يخلقون شيئًا، والمذكور هنا أنهم أيضًا لا يخلقون شيئًا وهم مخلوقون لغيرهم، فكان هذا زيادة في المعنى، وكأنه تعالى بدأ بشرح نقصهم في ذواتهم وصفاتهم، فبين أولًا أنها لا تخلق شيئًا، ثم ثانيًا كونها مخلوقة لغيرها»(٣).

الوصف الثاني: جاء في قوله: ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ أي هذه الأصنام إنما هي موتى لا حياة ولا حراك فيها «فلو كانت آلهة على الحقيقة لكانوا أحياء غير أموات، أي: غير جائز عليها الموت، كالحي الذي لا يموت سبحانه، وهذه الأصنام على العكس من ذلك»(٤).

الوصف الثالث: كونها لا تعلم عن البعث شيئًا، وهذا ما ذيلت به الآية الثانية من سورة النحل ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾.

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٥/ ٤٣٠.
(٢) روح المعاني، الألوسي ٥/ ١٣٣.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٠/ ١٦- ١٧ بتصرف.
(٤) المصدر نفسه ٢٠/ ١٧.

وفائدة وصف الأصنام بهذا: «التهكم بالمشركين، وأن آلهتهم لا تعلم وقت بعثهم فكيف يكون لهم وقت يجازون فيه على عبادتها؟.

وقيل: معناه: أن الأصنام لا تعرف متى يبعثها الله تعالى»[1].

وكلا المعنيين مرادان من الآية، إلا أن الراجح أولهما لما فيه من التهكم بأولئك الجهال الذين عبدوا الأصنام من تلقاء أنفسهم دونما حجة مقنعة.

ولكن كيف وصفت الأصنام بأنها أموات مع كونها جمادات لا يصح أن يطلق عليها هذا الوصف؟

والجواب: «أن القوم لما وصفوا تلك الأصنام بالإلهية قيل لهم: ليس الأمر كذلك، بل هي أموات لا تعرف شيئًا، فجاءت العبارة على وفق معتقدهم فيها»[2].

أرأيت كيف ضل العرب وغيرهم ردحًا من الزمان بتوجههم إلى هذه الأحجار بالعبادة والدعاء، وكيف رد القرآن عليهم، وفند شبههم بما لا يبقى لهم معه أدنى حجة، ولقد أفادتنا هاتان الآيتان جديدًا، وهذا الجديد تمثل في ذكر ثلاث صفات مجتمعة للأصنام.

وجاء التصريح بها «للتنبيه على كمال حماقة المشركين، وأنهم لا يعرفون ذلك إلا بالتصريح»[3]، لا التلميح أو التلويح. والله تعالى أعلى وأعلم.

(١) المصدر نفسه ٢٠/ ١٧ بتصرف.

(٢) ينظر في الجواب مع بقية الأوجه مفاتيح الغيب، الرازي ٢٠/ ١٧.

(٣) روح المعاني، الألوسي ٧/ ٣٦١ بتصرف.

مظاهر تقديس العرب للأصنام

لقد تعبد العرب للأصنام وقدسوها بأمور عديدة، يذكر البحث هنا بعضًا مما ذكره القرآن الكريم، ولكن في ثوب المعالجة التفسيرية، وأول ما يطالعنا من هذه المظاهر:

أولًا: عبادة الأصنام، والعكوف عليها، والتوجه إليها بالدعاء والتضرع:

والقرآن الكريم تحدث عن هذا المظهر في كثير من آياته، والآيات في هذا الشأن أكثر من أن تحصى، فعن العبادة والدعاء يقول الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾ [الأعراف: ١٩٤-١٩٥].

وقوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨].

وفي العكوف عليها والاستمساك بها يقول الله تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

وقال تعالى: ﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾ [الشعراء: ٧١].

وقال أيضًا: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥١-٥٢]... الآيات.

وبما أن المقام لا يتسع لتناول جميع هذه الآيات ونظائرها مفردة بالشرح والدراسة، فإن البحث يشير إجمالًا إليها وإلى أهم ما تحتويه:

الدعاء يرد في القرآن الكريم على معانٍ من أهمها:

- **العبادة:** وذلك مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ يعني: أنعبد، ومنه آياتنا محل الدراسة.
- **القول:** ومنه قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ٥]. يعني: ما كان قولهم إذ جاءهم عذابنا إلا أن قالوا: إنا كنا ظالمين.
- **النداء:** ومنه قوله: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠]. أي: فنادى ربه.
- **الاستغاثة:** فذلك قوله تعالى: ﴿وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٣].

أي: استغيثوا بهم[1].

والآيات التي معنا جاء الدعاء فيها بمعنى العبادة، ويحتمل أن يكون بمعنى التسمية، فمعنى «تدعون من دون الله» أي: «تعبدونهم وتسمونهم آلهة»[2].

وأقول: يحتمل أن يكون الدعاء على حقيقته من طلب قضاء الحوائج وتلبية المصالح التي يتوجهون بها إلى آلهتهم. والله أعلم.

وهنا يخاطب الله تعالى المشركين عباد الأوثان، موبخًا إياهم على عبادتهم ما لا يضر ولا ينفع بقوله: إن الذين تدعونهم عباد أمثالكم، مخلوقون ومربوبون لله رب العالمين، لا يخرجون عن طوعه وأمره؛ لأنهم مملوكون له، كما أنتم له مماليك، فإن كنتم صادقين في اعتقادكم فيها، فادعوها ولتستجب لدعائكم إذا ما دعوتموها، وإلا فأيقنوا أنها لا تنفع ولا تضر؛ لأنهما إنما يكونان ممن يملكهما وهو الله تعالى[3].

ولكن لم وصف الله الأصنام بأنها «عباد» مع أن هذا اللفظ لا يطلق إلا على العقلاء من البشر؟

وللجواب نقول: وصفت بذلك من حيث كونها مملوكة مسخرة، فصح إطلاق لفظ «العباد» عليها لذلك، وقيل: وصفت بذلك بناء على أن المشركين لما ادعوا أنها تضر وتنفع وجب أن يعتقدوا فيها كونها عاقلة فاهمة؛ فلذا ورد هذا اللفظ على حسب ما يعتقدون.

وقيل: إن هذا اللفظ «عباد» ورد في معرض الاستهزاء بهم، وسيق على سبيل الفرض والتقدير، كأنه قيل: إن قصارى أمرهم أن يكونوا أحياء عقلاء أمثالكم، فإن ثبت ذلك فلا فضل لهم عليكم، فلم جعلتم أنفسكم عبيدًا، وجعلتموها آلهة وأربابًا»[4].

ولا مانع من الجمع بين هذه الأوجه جميعها؛ لأنه لا تدافع بينها، فالأصنام مملوكة لله فهي من عباده، والمشركون يعتقدون فيها النفع والضر، فخوطبوا على حسب ما يعتقدون استهزاء وسخرية بهم، وبهذا يتم الجمع بين الوجوه الثلاثة.

والله تعالى هنا يذكر عن عباد الأصنام أمرين:

الأول: عبادتهم للأصنام.

الثاني: أنهم جعلوها شفعاء لهم عند الله.

أما الأول: فقد نبه على فساده من وجهين:

أحدهما: أن المعبود لابد وأن يكون أكمل قدرة من العابد، وهذه الأصنام لا

(١) انظر في تفصيل هذه الوجوه والاستشهاد عليها: الأشباه والنظائر في القرآن الكريم، لمقاتل بن سليمان البلخي ص ٢٨٥- ٢٨٨.

(٢) أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ٢٩١ المطبوع مع زادة.

(٣) جامع البيان، الطبري ٦/ ١٥٠ بتصرف وتلخيص.

(٤) حاشية زادة على البيضاوي ٢/ ٢٩١ بتصرف.

تنفع ولا تضر ألبتة، وأما هؤلاء الكفار فهم قادرون على التصرف في هذه الأصنام تارة بالإصلاح وأخرى بالإفساد، وإذا كان العابد أكمل حالًا من المعبود كانت العبادة باطلة.

ثانيهما: أن العبادة أعظم أنواع التعظيم، فهي لا تليق إلا بمن صدر منه أعظم أنواع الإنعام، من حياة وقدرة وعقل ونحوها، وهذا لا يصدر إلا من الله تعالى فوجب أن لا تليق العبادة إلا به سبحانه [(١)].

والأمر الثاني الذي حكاه الله عنهم: قولهم عن الأصنام: أنها ستشفع لهم عند الله تعالى، وإنما صدر عنهم هذا القول «لتوهمهم أنهم ليسوا أهلًا للاشتغال بعبادة الله تعالى، بل يشتغلون بعبادة الأصنام، ويدعون أنها تشفع لهم عند الله تعالى» [(٢)].

هذا بالنسبة للعبادة والدعاء والتضرع، أما بالنسبة للعكوف فقد عرفه الراغب بقوله: «العكوف: الإقبال على الشيء وملازمته على سبيل التعظيم له» [(٣)].

وقال صاحب البصائر: «العكوف على الشيء: الإقبال عليه مواظبًا. وعكفه يعكفه ويعكفه عكفًا: حبسه، والقوم حوله: استداروا، وقوم عكوف: عاكفون» [(٤)].

هذا والملاحظ على آيات «العكوف» أمور، هي:

الأول: ورد التعبير عن العكوف في قصة بني إسرائيل بالفعل المضارع «يعكفون» للدلالة على تجدد عكوف هؤلاء القوم على عبادة الأصنام، وأنهم يجددون ذلك لها حينًا بعد حين، وكان التعبير بالمضارع هنا مناسبًا لأن أحداث القصة تناسب ذلك، فبنو إسرائيل مروا عليهم بعد خروجهم من البحر، ونجاتهم من فرعون -عليه اللعنة-.

الثاني: وورد التعبير عن العكوف في بقية الآيات بالاسم «عاكفين-عاكفون-عاكفًا» للدلالة على الدوام والاستمرار، وأن المشركين في عهد إبراهيم عليه السلام عبروا عما يجيش في صدروهم من طول المكث، وعدم وجود نية التحول عن عبادة الأوثان إلى غيرها.

الثالث: الاستفهام في الآيات مجازي بمعنى التحقير والتقرير، وقد كان إبراهيم عليه السلام يعلم أنهم عبدة أصنام، ولكنه سألهم ليريهم أن ما كانوا يعبدونه ليس مستحقًا للعبادة؛ لما ترتب على جوابهم من أوصاف معبوداتهم التي هي منافية للعبادة [(٥)].

الرابع: لما سألهم إبراهيم عليه السلام عن الذي يعبدونه لم يقتصروا على ذكره فقط، بل أجابوا بما يزيد عليه، فقالوا: ﴿نَعْبُدُ

(١) المصدر نفسه ١٧/ ٢٢٧.
(٢) المصدر نفسه ١٧/ ٢٢٧ بتصرف.
(٣) المفردات ص٥٧٩.
(٤) بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٤/ ٨٦.
(٥) البحر المحيط، أبو حيان ٨/ ١٦٢ بتصرف.

﴿أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾ [الشعراء: ٧١].

ولم يقتصروا على أن يجيبوا بقولهم: «أصنامًا» للدلالة على ابتهاجهم وافتخارهم بعبادهم هذه؛ لذا أتوا بقصتهم كاملة[(١)].

الخامس: عبروا بقولهم: ﴿فَنَظَلُّ﴾ لأنهم كانو يعبدونهم بالنهار دون الليل، أو معناه: الدوام[(٢)]، والله أعلم.

ثانيًا: ذبح الذبائح والقرابين باسم الأصنام:

هذا هو المظهر الثاني من مظاهر تقديس الأصنام وعبادتها، وجاء الحديث عن هذا المظهر في القرآن الكريم في ثوب تحريم الذبح والإهلال لغير الله تعالى في أربع آيات من القرآن الكريم وهي -حسب ورودها في المصحف- كما يلي:

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٣].

وقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ٢].

وقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ [الأنعام: ١٢١].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [النحل: ١١٥].

هذه الآيات المباركات تكشف لنا عن لون من ألوان تعبد الوثنيين لأصنامهم، وهو أنهم كانوا يذبحون الذبائح باسمها، ويرفعون أصواتهم بها عند الذبح، وينذرون النذور لها، ويتزلفون بمختلف القرابين؛ لذا فإن ربنا سبحانه وتعالى نهى المسلمين عن مثل هذه الصور المحرمة، والشركيات الباطلة.

وأصل الإهلال -كما يقول الراغب- رفع الصوت عند رؤية الهلال، ثم استعمل لكل صوت، وبه شبه إهلال الصبي إذا ولد، حيث يستهل صارخًا، وقوله تعالى: ﴿وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ أي ما ذكر عليه اسم غير اسم الله وهو ما كان يذبح لأجل الأصنام[(٣)] لأجل التقرب لها، والظفر بحسن المنزلة لديها.

وحرم الله تعالى أكل ما ذبح على غير اسمه تعالى «لخبثه معنويًا؛ لأنه ذكر عليه اسم غير خالقه المنعم به عند ذبحه، ولولا ذلك لكان حلالًا، وسمي الذكر إهلالًا لما فيه من الإهلال، أي: رفع الصوت.. »[(٤)].

ولقد كان أهل الجاهلية يذبحون باسم أصنامهم، وكان عند كل صنم مذبح

(١) المصدر نفسه ٨/ ١٦٢ بتصرف.
(٢) البحر المحيط ٨/ ١٦٢، ومدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٥٦٧.
(٣) المفردات ص ٥٢٢ بتصرف.
(٤) التفسير الوسيط، مجمع البحوث الإسلامية ١/ ٢٦٣ بتصرف.

يذبحون فيه القرابين، ومن مظاهر تعبدهم عند الذبح أنهم كانوا يأخذون بعضًا من دماء هذه القرابين، ويلطخون بها الأصنام تخليدًا لذكرى تعبدهم بالذبح عندها، ومن جهلهم أنهم كانوا يذبحون ذبائح كثيرة يلقونها بجوار الصنم زاعمين أنها للآلهة فلا يقربها أحد، ويكون مصيرها في النهاية الهلاك، أو طعمة للسباع والطيور... ولا حول ولا قوة إلا بالله.

هذا وإن الآيات عامة في «تحريم ذبيحة الوثني والمجوس والمعطل، فهي كلها حرام كذبيحة من ذكر اسم غير الله عليها»[1].

ومن ضمن المحرمات المذكورة في الآيات: قوله تعالى: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ والنصب: هي الحجارة التي تنصب حول الكعبة وما جاورها لتذبح عندها الذبائح، وكانوا يلطخون أصنامهم بدمائها.

وفي ذلك يقول بعض العلماء «النصب: حجارة ينصبونها حول الكعبة، وكانوا يذبحون عندها للأصنام، ويلطخونها بتلك الدماء، ويضعون اللحوم عليها»[2].

هذا ولقد كان أهل الجاهلية «يسمون ذبائح الغنم التي جعلوها لأصنامهم، وأنصابهم تلك بـ«العتائر» والعتيرة في كلام العرب: الذبيحة، والمذبح الذي يذبحون فيه لها يسمى العتر»[3].

وهذا النهي في آية الأنعام في قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ مخصوص بما إذا ذبح على اسم النصب، ويدل عليه وجوه:

أحدها: قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ حيث أجمع المسلمون على أنه لا يفسق آكل ذبيحة المسلم الذي ترك التسمية.

ثانيها: قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾، وهذه المناظرة إنما كانت في مسألة الميتة.

ثالثها: قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ وهذا مخصوص بما ذبح على اسم النصب، يعني: لو رضيتم بهذه الذبيحة التي ذبحت باسم الأوثان فقد رضيتم بإلهيتها، وذلك يوجب الشرك[4].

هذا والملاحظ على الآيات أمور، وهي:

الأول: «تكرر قوله: ﴿وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ في الآيات للتأكيد على تحريم هذا الأمر، فلقد كان الذبح لغير الله من الأمور العادية عند الجاهلين، وكانوا يفعلونه على أنه من أمور حياتهم الطبيعية، حتى استفحل فيهم هذا الأمر، وانتشر وأصبح من الصعب

(١) المصدر السابق ١/ ٢٦٣ بتصرف.
(٢) المصدر نفسه ١١/ ١٣٦.
(٣) الموسوعة الذهبية، فاطمة محجوب ١١/ ٢١١.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ١٣/ ١٧٧- ١٧٨ بتصرف.

عليهم قسرهم عن هذه العادات مرة واحدة بأمر واحد؛ لذا كان من حكمة القرآن البالغة أن كرر تحريم هذه الأمور مرات ومرات؛ حتى يستأصل شأفة الداء من عندهم، وعلى هذا فالتكرار للتأكيد والتقوية، وترسيخ المعنى في الأذهان.

الثاني: غايرت آية النحل آية سورة البقرة في الأسلوب حيث أخر لفظ «به» عن قوله: «لغير الله» فآية النحل تقول: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ وآية البقرة تقول: ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ﴾ فما سر التقديم والتأخير؟

وأجيب عن ذلك بأن «تقديم الباء في (به) هو الأصل، فإنه يجري مجرى الألف، فكان كحرف من الفعل، فكان الموضع **الأول**- أي: آية سورة البقرة- أولى بما هو الأصل ليعلم ما يقتضيه اللفظ، ثم قدم فيما سواه ما هو المستنكر -وهو الذبح لغير الله- وتقديم ما هو المستنكر أولى؛ ولهذا جاز تقديم المفعول على الفاعل، والحال على ذي الحال.. »[1]، وعلى الثاني وردت آية النحل.

الثالث: حذف من آية النحل قوله: «﴿فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ﴾ وذكر في آية البقرة، وذلك لأنه لما قال في آية البقرة: ﴿فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ﴾ صريحًا -وهذا هو الموضع **الأول**: اكتفى به في غيره تضمينًا؛ لأن قوله في آخر الآية: ﴿غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ دل على أنه لا إثم عليه»[2]، والله تعالى أعلم.

أرأيت معي كيف أفادتنا هذه الآية الكريمة من المعاني الجديدة التي تنبض بالحيوية والجدة مع أنها مكررة ألفاظها من قبل، إذًا لا تخلو إعادة من إفادة، ولا تكرار من جديد، وهذا هو شأن القرآن دومًا، فجميع كلماته بل حروفه تنبض كلها بالجدة والنضارة... ألا فليخسأ أعداء الله، فإن الله حافظ كتابه، وراد كيدهم في نحورهم: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢].

ثالثًا: الاستقسام بالأزلام عند الأصنام:

من مظاهر تقديس العرب للأصنام الاستقسام بالأزلام عندها، ولقد جاءت الإشارة إلى هذا المظهر في آيتين من كتاب الله، وكلتا الآيتين وردتا في سورة المائدة.

الأولى: قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ﴾ إلى أن قال: ﴿وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ ذَٰلِكُمۡ فِسۡقٌۗ﴾ [المائدة: ٣] **الآية**.

والثانية: قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠].

والأزلام: عبارة عن عيدان دقيقة متخذة

(١) البرهان في توجيه متشابه القرآن، الكرماني ص ١٢١ بتصرف.

(٢) المصدر نفسه ص ١٢١ بتصرف.

من شجر متين، يتسم بالصلابة والقوة، وسمت بعلامات ميزت بعضها عن بعض، والاستقسام بها معناه: «طلب القسم، أي: معرفة ما يقسم للإنسان ويقدر»[١].

أو «هو طلب معرفة الخير والشر بواسطة ضرب القداح»[٢].

كيفية الاستقسام بالأزلام:

كان العرب إذا أراد أحدهم السفر للتجارة أو الغزو ونحوهما، أو أراد زواجًا، أو حفر بئر، أو أراد معرفة نسب ولدٍ ما... أو غير ذلك من أمور حياتهم الغيبية جاءوا إلى الأصنام، واستقسموا بالأزلام عندها، واستقرؤوها الغيب، وكان في أحد هذه الأزلام «افعل»، وفي الآخر «لا تفعل»، والثالث «لا شيء فيه» ويجعلونها في قدح معين، ثم يحركها سادن الصنم، ويأتي المستقسم ليأخذ واحدًا من هذه العيدان، فإن خرج الآمر ائتمروا، وإن خرج الناهي انتهوا، وإن خرج الثالث أعادوا الضرب حتى يخرج أحدهما[٣].

سبب استقسامهم بالأزلام:

لقد استقسم العرب بالأزلام، واستقرؤوها الغيب، «لأنهم كانوا في حيرة من أمرهم، فأديان شتى، وقبائل متفرقة، لا نظام معين يردون إليه، ولا حكومة موحدة يرجعون إليها، وصحراؤهم تبسط عليهم جناح الأمن حينًا، وتسدل عليهم الحروب أحيانًا، فضلًا عن سوء أحوال المعيشة واضطرابها بين جوع وشبع، وفقر وغنى.. إلخ، وكانت هذه الأمور وغيرها مثار قلق وحيرة واضطراب لديهم، فكان لابد لهم من مذهب عنهم الحيرة والقلق، فلجأوا إلى وسائل شتى، ظنوها تجلب إليهم الطمأنينة، فلجأوا إلى التفاؤل والطيرة، فحكموا الحيوان والطير في أمورهم، وتفاءلوا بالأصوات والكلمات.. وأخيرًا اتخذوا الأزلام يستقسمون بها الغيب المخبوء عنهم»[٤].

لكن الله تعالى بالإسلام حرم كل هذا الخلط والخبط العشوائي، فنهى عن الاستقسام بالأزلام ووصفه بأنه فسق «لأنه دخول في علم الغيب الذي استأثر به علام الغيوب، حيث يقول سبحانه: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥].

واعتقاد أن إلى الغيب طريقًا، وإلى استنباطه سبيلًا خطأ وضلال مبين.

و«قول أحدهم: أمرني ربي، أو نهاني ربي... إلخ، افتراء على الله عظيم، وما

(١) الميسر والأزلام ص ٥٥.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ١١/ ١٣٨.
وانظر: الكشاف ١/ ٥٩٢.
(٣) الميسر والأزلام ص ٦٢- ٧٠.
(٤) الميسر والأزلام ص ٦٢- ٦٦.

يدريه أن ربه أمره أو نهاه»[1]، ولو لم يكن في الاستقسام بالأزلام إلا الافتراء على الله تعالى، والكذب عليه لكفى بذلك إثمًا وزورًا، فإن كان بهذه المثابة فهو جدير بالتحريم والنهي عنه.

هذا ولقد أبدلنا الله به في الإسلام صلاة الاستخارة، والدعاء فيها معروف ومشهور[2]، وفي كلمات هذا الدعاء يفوض العبد أموره لله تعالى، ويرد علم الأشياء إلى علام الغيوب سبحانه.

رابعًا: اختصاص الأصنام ببعض الحيوانات الحية:

وجاء إبطال هذا المظهر في آية واحدة من القرآن، وهي قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣]

تقرب عباد الأصنام إلى أصنامهم بكثير من العبادات، منها ما كان ينذره البعض من نذور، ومن هذه النذور والقرابين «ما يكون حيوانات حية، تسمى باسم الأرباب، فتحبس عليها، وتوقف باسمها، وتكون حرة طليقة لا يجوز لأحد أن يقربها بسوء.

ومن هذه الحيوانات الحية ما جاء في هذه الآية الكريمة:

١. البحيرة.

وهي من البحر و«أصل البحر: كل مكان واسع جامع للماء الكثير، ثم اعتبر هذا المعنى في كل واسع، فيقال: بحرت كذا، أي: أوسعته سعة البحر تشبيهًا به، ومنه بحرت البعير: شققت أذنه شقًا واسعًا، ومنه سميت «البحيرة»، ويقال للمتوسع في علمه: بحر»[3].

وهذا خلاصة ما ورد في لفظ «البحيرة» لغة، ولقد اختلف العلماء في تحديد وتعريف «البحيرة» اصطلاحًا اختلافًا كثيرًا[4] إلا أن اختلافهم هذا يؤل إلى أن البحيرة هي:

«الناقة أو الشاة التي تشق أذنها إذا ولدت خمسة أبطن أو عشرة أو بين ذلك، فإذا تم لها ذلك تركت فلا يشرب لبنها، ولا يجز وبرها، ولا يحمل على ظهرها، ولا تطرد عن ماء، ولا تمنع من كلأ، فإذا ماتت حرموا لحمها على النساء دون الرجال»[5].

(١) الكشاف ١/ ٥٩٢ بتصرف.

(٢) دعاء الاستخارة أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب الدعاء عند الاستخارة، رقم ٦٣٨٢.

(٣) المفردات ص ٤٨ بتصرف «بحر».

(٤) فصل هذه الآراء الإمام الآلوسي في تفسيره ٤/ ٤١.

(٥) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٦/ ٢٠٤، ومفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ١١٦، وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٢٩، ١٣٠، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٣١٥، ومعاني القرآن وإعرابه، الزجاج

٢. السائبة.

أصل السائبة: من «سيبته فساب، والسيب مجرى الماء»[١] الذي ينساب فيه بين شطآنه.

أو السائبة «فاعلة من سيبته، أي: تركته وأهملته فهي سائبة، أو لمعنى مفعول كعيشة راضية»[٢].

ومن هذا الأصل اللغوي جاءت تعاريف العلماء للسائبة، ولقد اختلفوا في تعريفها اصطلاحًا أيضًا، وخلاصة أقوالهم تئول إلى أن السائبة هي «الناقة أو البعير أو الدابة التي يبلغ نتاجها حدًا معينًا، فحينئذ تترك ولا تركب ولا يحمل عليها، ولا تمنع من ماء وكلأ، وتترك سائبة لا يحل لأحد كائنًا من كان أن يخالف ذلك»[٣]، وهذه الأقوال وأشباهها تعطينا صورة كاملة لما كان عليه أهل الجاهلية من تعبد؛ لاعتقادهم أن ذلك يقربهم إلى الله زلفى.

٣. الوصيلة.

قال بعض المفسرين: «الوصيلة: هي الشاة إذا ولدت ذكرًا وأنثى، قالوا: وصلت أخاها، وتركوا الذكر لآلهتهم، وإن ولدت ذكرًا فهو لآلهتهم، وإن ولدت أنثى فهي لهم ... وعليه فالوصيلة بمعنى الموصولة، كأنها وصلت بغيرها، ويجوز أن تكون بمعنى الواصلة؛ لأنها وصلت أخاها»[٤].

وقيل: «الوصيلة في الغنم، فإذا ولدت الشاة سبعة أبطن نظروا، فإن كان السابع ذكرًا ذبح وأكل منه الرجال والنساء، وإن كان أنثى تركت في الغنم، وإن كان ذكرًا وأنثى قالوا: وصلت أخاها، فلم تذبح لمكانها، وكان لحمها حرامًا على النساء، ولبنها كذلك، إلا أن يموت منها شيء فيأكله الرجال والنساء»[٥]، ولعل هذا الاختلاف راجع إلى أن كل قبيلة من قبائل العرب كان لها نظام معين في مثل هذه الأمور تسير عليه، وتنهج نهجه؛ لذا اختلف النقل عنهم تبعًا لاختلاف أنظمة القبائل، وعلى كلٍ فهذه أقوال تصور لنا جانبًا من جوانب تقديس العرب للأصنام.

٤. الحامي.

الحامي: اسم فاعل من حمى، أي: منع، وهو الفحل من الإبل[٦] واختلفوا في تحديد ماهيته أيضًا.

فقال الفراء: «هو الفحل إذا لقح ولد ولده حمي ظهره فلا يركب، ولا يجز له وبر،

٢/ ٢١٣.

(١) المفردات ص ٢٥٥ بتصرف.

(٢) روح المعاني، الألوسي ٤/ ٤١، ٤٢.

(٣) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٦/ ٢٠٥ بتصرف، وانظر روح المعاني، الألوسي ٤/ ٤٢.

(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ١١٦ بتصرف.

(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٣١٦ بتصرف.

(٦) تفسير البحر المحيط ٤/ ٢٩.

ولا يمنع من مرعى، وأي إبل ضرب فيها لم يمنع»[1].

وقالوا: بل الحام الفحل إذا نتج له عشر إناث متتابعات، ليس بينهن ذكر فقد حمي ظهره، فلا يركب ولا يجز وبره، ويخلى في إبله يضرب فيها، لا ينتفع به بغير ذلك[2]، وقيل: كان الفحل إذا انقضى ضرابه جعلوا عليه من ريش الطواويس وسيبوه[3].

والملاحظ أن الاختلاف بين هذه الأقوال اختلاف لفظي ظاهري، حيث يمكن الجمع بينهما، فالحامي هو الفحل من الإبل، الذي يمتد به عمره فيلقح ولد ولده، ولا يكون ذلك إلا إذا نتج له عشر إناث أو ما قارب ذلك، ولعل هذا الاختلاف راجع - كما ذكر من قبل- إلى تباين قبائل العرب في ذلك.

ويؤيد هذا ما ذكره الآلوسي بقوله -بعد أن حكى قريبًا من هذه الأقوال-: «وجمع بين الأقوال المتقدمة في كل من تلك الأنواع بأن العرب كانت تختلف أفعالهم فيها»[4].

وبالتالي روى كل راوٍ حسبما نمى إلى علمه من أمورهم، والله تبارك وتعالى أبطل كل هذه الشركيات الجاهلية في الإسلام بقوله: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ﴾ أي: ما شرع ولا حكم ... بمثل هذه الأمور، لكن الذين كفروا يختلفون ويفترون الكذب على الله تعالى «حيث يفعلون ما يفعلون، ويقولون: الله أمرنا بهذا، ويكذبون على الله بادعائهم أن هذه الأشياء من فعل الله وأمره»[5]، والله تعالى أعلى وأعلم.

(١) معاني القرآن، الفراء ١/ ٣٢٢.
(٢) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٦/ ٢٠٦ بتصرف.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٣١٦.
(٤) روح المعاني، الألوسي ٤/ ٤٢.

خامسًا: اختصاص العرب الأصنام ببعض الحرث والزراعة:

من أباطيل المشركين وجهلهم في تعبدهم للأصنام أنهم كانوا يخصونها ببعض الحرث والزرع، ولقد ذكر الله ذلك عنهم في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ ۗ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٦].

الذرء -كما يقول الراغب- إظهار الله تعالى ما أبداه، يقال: ذرأ الله الخلق، أي: أوجد أشخاصهم.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩][6].

والأنعام «لفظ يطلق على الإبل والبقر

(٥) المصدر نفسه ٤/ ٤٢، وانظر تفسير الطبرسي ٣/ ٣٣١
(٦) المفردات ص ١٨٣ « ذرأ».

والغنم» خاصة من بين الماشية، وهي «جمع نعم، مأخوذة من نعمة الوطء»[1] فهي موطأة للإنسان ليركبها، ويستخدمها في سائر أموره الحياتية.

وسورة الأنعام من السور التي ذكرت كثيرًا من جهالات العرب في الجاهلية، مما يدل على سفاهة أحلامهم وتفاهة عقولهم، والآية التي معنا تمضي قدمًا في هذا الإطار، لكن فعلهم هنا بلغ حد الإجحاف، وجاوز حد الاعتداء على ما جعلوه لله تعالى، مع أنهم كانوا على العكس من ذلك تمامًا بالنسبة لما كان لأصنامهم، هذا ولقد تباينت أقوال المفسرين في توضيح صورة هذا الإجحاف على أقوال تلخيصها فيما يلي:

- قال ابن عباس رضي الله عنهما: «كانوا إذا أدخلوا الطعام فجعلوه حزمًا، جعلوا منها سهمًا لله، وسهمًا لآلهتهم، وكان إذا هبت الريح من نحو الذي جعلوه لآلهتهم إلى الذي جعلوه لله، ردوه إلى الذي جعلوه لآلهتهم، وإن هبت من نحو الذي جعلوه لله إلى الذي جعلوه لآلهتهم أقروه ولم يردوه»[2].
- ذكر الطبري عن ابن عباس أيضًا أنه قال: «جعلوا لله من سقي الماء نصيبًا، وللشيطان والأوثان نصيبًا، فإن انفجر شيء من سقي ما جعلوه لله في نصيب الشيطان تركوه، وإن انفجر من سقي ما جعلوه للشيطان في نصيب الله سدوه»[3].
- ذكر أبو حيان عن بعض العلماء: أن المشركين كانوا إذا ذبحوا لله ذكروا آلهتهم على ذلك الذبح، وإذا ذبحوا لآلهتهم لم يذكروا الله، وهذا هو معنى الآية عندهم[4].

والناظر في هذه الآراء جميعها لا يكاد يجد بينها فرقًا جوهريًا، بل هو مجرد خلاف لفظي أو هو -كما يعبر عنه- اختلاف عبارة وتنوع لا اختلاف تضاد؛ وذلك لأنها تلتقي على مائدة واحدة، وتصور لنا مدى قسمة أهل الجاهلية الضيزى، وتبين مدى الجور على حقوق الله تعالى في أي نوع خصوه به من «حرث أو سقي أو أنعام»، ولعل اختلاف النقل عن العرب راجع إلى اختلاف طرائق قبائل العرب أنفسهم في هذه الأمور، فبعض القبائل تجعل النصيبين من الحرث، وبعضهم من الأنعام، والبعض الآخر من سقي الماء.. وهكذا، لذا فقد اختلف النقل، والأمر في ذلك كله يسير.

هذا ولقد رجح الإمام الطبري القول الأول للإمام ابن عباس على غيره، أخذًا

(١) المفردات ص ٥٠١.
(٢) روى هذا الأثر الإمام الطبري في تفسيره ٥/ ٣٥٠.
(٣) المصدر نفسه ٥/ ٣٥٠ بتصرف.
(٤) البحر المحيط ٤/ ٢٢٨.

بظاهر الآية، فالله جل ثناؤه أخبر أنهم جعلوا له من حرثهم وأنعامهم قسمًا مقدورًا، فقالوا: هذا لله، وجعلوا مثله لشركائهم - وهم الأوثان بالإجماع- وقالوا: هذا لشركائنا، وأن نصيب شركائهم لا يصل منه لله شيء، وما كان لله وصل إلى نصيب شركائهم[1]، وعلى كلٍ فالآية توضح مدى تعظيم وتقديس العرب لأصنامهم، ومدى مبالغتهم في ذلك حتى وإن جاروا على حق الله تعالى.

ويبين بعض الباحثين سبب هذه التفرقة، وسبب هذا الظلم فيقول: «ولعل ذلك بسبب أن ما خصصوه للأصنام كان يجد له معقبًا وسائلًا، يراجع أصحاب الحرث والأنعام لاستحصال حق الأصنام منهم، وهو حق مفروض، فكان السدنة يحصلون حق الأصنام، بينما كان ما يخصصونه لله نذرًا لا يعرف به غير الناذر، فكان يتلاعب به، ويعطيه أو يعطي جزءًا منه إلى جامعي حق الأصنام، على اعتبـــار أنها شريكة لله، وبهذا يتهرب من أداء النذر كاملًا بهذه الحيلة، أو لاعتقادهم بأن الله بعيد عنهم، وهو غفور رحيم، أما الأصنام فقريبة منهم وهي منتقمة أشد الانتقام»[2].

(١) يراجع في تفصيل الترجيح وبقية الاستدلال عليه: جامع البيان، الطبري ٥/ ٣٥١.

(٢) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٦/ ١٩٤ بتصرف.

أرأيت أيها القارئ الكريم كيف يحتال العرب لاغتيال حق الله تعالى أو الجور عليه، ثم هم يوفون أصنامهم حق الوفاء، بل وأكثر منه، فهم بحق ﴿سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾، وساء حكمهم هذا «لإيثارهم مخلوقًا عاجزًا عن كل شيء، على خالق قادر على كل شيء»[3] ألا ما أجهل المشركين! وما أحلم الله عنهم!

سادسًا: الطواف حولها:

لم يرد هذا المظهر صراحة في القرآن الكريم، إنما وردت الإشارة إليه بطريق المفهوم، حيث ورد في سبب نزول قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ﴾ [البقرة: ١٥٨].

ما يفيد أن العرب كانوا يطوفون حول أصنامهم التي كانوا يعبدونها من دون الله تعالى.

فعن عروة بن الزبير رضي الله عنه قال: سألت عائشة: أرأيت قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ﴾ [البقرة: ١٥٨].

فوالله ما على أحد جناح أن لا يطوف بالصفا والمروة، قالت: بئس ما قلت يا ابن أختي، إن هذه لو كانت كما أولتها عليه كانت

(٣) روح المعاني، الألوسي ٤/ ٢٧٦ بتصرف.

«فلا جناح عليه ألا يطوف بهما» ولكنها أنزلت فى الأنصار كانوا قبل أن يسلموا يهلون لمناة الطاغية، التى كانوا يعبدونها عند المشلل، فكان من أهل يتحرج أن يطوف بالصفا والمروة، فلما أسلموا سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك، قالوا: يا رسول الله، إنا كنا نتحرج أن نطوف بين الصفا والمروة، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ الآية، قالت عائشة: **(وقد سن رسول الله صلى الله عليه وسلم الطواف بينهما، فليس لأحد أن يترك الطواف بينهما)** [1] الحديث.

يعلق الإمام ابن بطال على الآية والحديث فيقول: «نزلت في الفريقين كليهما، في الذين كانوا يتحرجون أن يطوفوا بالجاهلية بالصفا والمروة، والذين يطوفون ثم تحرجوا أن يطوفوا بهما فى الإسلام من أجل أن الله أمر بالطواف بالبيت، ولم يذكر الصفا حتى ذكر ذلك بعد ما ذكر الطواف بالبيت... ثم يذكر عن بعضهم قوله: كان على الصفا وثن،يقال له: «يساف»، وعلى المروة وثن يقال له: «نائلة»، فكان المشركون يطوفون بينهما، فلما كان الإسلام قال ناس: «يا رسول الله، إن أهل الجاهلية كانوا يطوفون بين الصفا والمروة للوثنين الذين كان عليهما، وليسا من شعائر الله» فنزلت هذه الآية» [2].

فمن خلال ماسبق يتضح أن المشركين كانوا يتعبدون لأوثانهم بالطواف حولها، وهذا مظهر من مظاهر التعبد والتقديس لها، فلما جاء الإسلام ودخل فيه من كان يطوف حول الصفا والمروة حالة كون الأصنام عليهما وهو في الجاهلية، تحرج وهو في الإسلام أن يطوف بينهما استصحابًا للحالة الماضية، فلما تحرجوا أنزل الله الآية لرفع هذا الحرج، وبيان أنه كان من أمر الجاهلية الذي رفعه الله بالإسلام، والله أعلم.

(١) أخرجه البخاري، واللفظ له، في صحيحه، كتاب الحج، باب وجوب الصفا والمروة وجعل من شعائر الله، رقم ٦٤٣، ٢/ ١٥٧، ومسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب بيان أن السعي بين الصفا والمروة ركن، رقم ١٢٧٧، ٢/ ٩٢٨.

(٢) شرح صحيح البخاري، ابن بطال ٤/ ٣٢٣ بتصرف.

عاقبة الأوثان وعابديها

مما لاشك فيه أن العاقبة للمتقين، والنهاية الوخيمة للظلم والظالمين، ولا ظلم أعظم من ظلم الإنسان لنفسه في إشراكه بربه، وعبادته الأوثان من دونه تعالى، وسيجلي البحث هنا عاقبة الأوثان وعابديها في الدنيا والآخرة:

أولًا: عاقبة الأوثان وعابديها في الدنيا:

يعد من نافلة القول إن الإسلام دين الخير والرحمة لجميع البشرية في كل زمان ومكان، حتى وإن لم يكونوا معتنقين له، فالله تعالى وصف حبيبه صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

فعموم رحمته للعالمين واضح بنص الآية الكريمة، ومن هذا المنطلق فإن عباد الأوثان من هذا القبيل، ينبغي أن يبين لهم سماحة هذا الدين، وفساد ما هم عليه من وثنية وشرك، وأن أوثانهم هذه لن تنفعهم مثقال ذرة من خير في الدنيا والآخرة، ولا أدل على ذلك من حالهم حين يمسهم السوء في البر أو البحر، فإن عقولهم تذهل عن كل معبود سوى الله تعالى، يرفعون إليه وحده أكف الضراعة لينجيهم مما هم فيه، وتلهث الألسنة حينئذ بأحر عبارات الدعاء والثناء والالتجاء إليه وحده دون سواه، والآيات في هذا الصدد كثيرة ووفيرة، يكتفى منها بواحدة توضح المقصود وتبينه.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا ٦٧ أَفَأَمِنتُمۡ أَن يَخۡسِفَ بِكُمۡ جَانِبَ ٱلۡبَرِّ أَوۡ يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗا ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ وَكِيلًا ٦٨ أَمۡ أَمِنتُمۡ أَن يُعِيدَكُمۡ فِيهِ تَارَةً أُخۡرَىٰ فَيُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ قَاصِفٗا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغۡرِقَكُم بِمَا كَفَرۡتُمۡ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ عَلَيۡنَا بِهِۦ تَبِيعٗا﴾ [الإسراء: ٦٧-٦٩]

وفي هذه الآيات يقول تعالى ذكره: وإذا نالتكم الشدة والجهد في البحر فقدتم من تدعون من دون الله من الأنداد والآلهة، ولم تجدوا غير الله مغيثًا يغيثكم إذا دعوتموه، فلما دعوتموه وأغاثكم، وأجاب دعاءكم ونجاكم من هول ما كنتم فيه في البحر، أعرضتم عما دعاكم إليه ربكم من خلع الأنداد والأوثان، والبراءة من الآلهة، وإفراده بالألوهية؛ كفرًا منكم بنعمته، وكان الإنسان كفورًا ذا جحد لنعم ربه، ثم يقول تعالى ذكره: أفأمنتم أيها الناس من ربكم، وقد كفرتم نعمته بتنجيته إياكم من هول ما كنتم فيه في البحر، أن يخسف بكم ناحية البر، أو يرسل عليكم حاصبًا، ثم يقول: أو يمطركم بحجارة حارة من السماء تقتلكم، كما فعل بقوم لوط، ثم لا تجدوا لكم وكيلًا، ثم يقول: ثم لا تجدوا لكم ما يقوم بالمدافعة

عنكم من عذابه وما يمنعكم منه، أم أمنتم أيها القوم من ربكم، وقد كفرتم به بعد إنعامه عليكم، النعمة التي قد علمتم أن يعيدكم في البحر تارة أخرى، فيرسل عليكم قاصفًا من الريح، وهي التي تقصف ما مرت به فتحطمه وتدقه، فيغرقكم الله بهذه الريح القاصف بما كفرتم، ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعًا، ثم لا تجدوا لكم علينا تابعًا يتبعنا بما فعلنا بكم، ولا ثائرًا يثأرنا بإهلاكنا إياكم[1].

والآيات الكريمة تحكي حال الإنسان عامة مع ربه تعالى، لا حال الوثنيين وحدهم، نسأل الله العفو والعافية.

هذا وينبغي أيضًا في التعامل مع الأوثان أن تزال وتكسر، وتستأصل شأفتها، كما فعل نبينا صلى الله عليه وسلم بها يوم الفتح، وكما فعل من قبله أبوه إبراهيم الخليل عليه السلام، والأدلة على ذلك شهيرة ووفيرة.

ومن ثم ينبغي أن يفيء الوثنيون إلى رشدهم قبل أن يباغتهم الموت، ويموتوا -عياذًا بالله- على شركهم فيخلدوا في النار، فضلًا عما يقع بينهم وبين آلهتهم من تبرؤ وشقاق.

ثانيًا: عاقبة الأوثان وعابديها في الآخرة:

طوف بنا البحث فيما سبق مع الأوثان والوثنيين وعاقبتهم في الدنيا، من وجوب دعوتهم إلى الحق، وانتشالهم من الجهالة والضلالة، وإزلتها ومحاربتها... والآن يطوف بنا في جولة أخرى لبيان عاقبتهم في الآخرة...

١. تبرؤ الآلهة المزعومة من عابديها.

أورد القرآن أن ما عبد من دون الله تعالى سيتنصل من عابديه يوم القيامة، بل إن المشركين أنفسهم لما يرون العذاب يعلنون البراءة من هذه الأصنام.. ولكن هيهات هيهات، فات وقت الندم والتبرؤ، وانصرم وقت التوبة والتحسر، ولم يبق إلا الحساب والعذاب، وجاء هذا البيان في غير آية من القرآن، ومن هذه الآيات:

قوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦].

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٢-٢٤].

وقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٣٧].

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ

(١) جامع البيان، الطبري ١٧/ ٤٩٨ بتصرف.

﴿نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ [يونس: ٢٨].

إلى غير هذه الآيات التي فاض بها القرآن الكريم، ولما كان المقام لا يتسع لتناول هذه الآيات بالدراسة والشرح يكتفي البحث بالنظرة الإجمالية العامة على الآيات المباركات:

يجهد المشركون أنفسهم في التقرب والتزلف إلى آلهتهم في الدنيا، فيعترون العتائر ويقدمون القرابين، بل ويخصصون جزءًا من الحرث والأنعام لهذه الآلهة.. عساهم أن يحظوا بالرضا والقبول لديها، لكنهم يصدمون يوم القيامة حين يجابهون منها بما يكرهون، ويواجهون بما لم يتوقعوا.. وتتنصل هذه الآلهة منهم.

والآيات التي معنا تصور لقطة من هذا المشهد الأخروي، فيحشر العباد جميعًا يوم القيامة، وينادي الذين أشركوا: ﴿أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أنهم شركاء، والمقصود من هذا السؤال «التقريع والتبكيت، لا نفس السؤال، ويحتمل أن يكون معناه: أين نفس الشركاء؟ أو أين شفاعتهم، وانتفاعكم بهم؟

وعلى كل لا يكون الكلام إلا تقريعًا وتوبيخًا، وتقريرًا لهم أن ما يرجونه مأيوس منه، وتنبيهًا على فساد طريقتهم في الدنيا»[(١)].

لكن المشركين عند سؤالهم لا يجيبون بالحقيقة بل يكذبون، ظنًا منهم أن الله لا يعلم حقيقة الأمر، ولعل كذبهم ينجيهم من هول الموقف، وحكى الله عنهم ذلك في قوله: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾ وأصل الفتنة - كما يقول الراغب[(٢)]- إدخال الذهب في النار؛ لتظهر جودته من رداءته، ثم استعملت بعد ذلك في معانٍ كالعذاب، والاختبار، والبلاء، والشدة.. وغيرها، والفتنة تكون من الله للعبد.. كالبلية، والمصيبة، والقتل والعذاب.. وغير ذلك[(٣)].

قال الزجاج[(٤)] في تفسير الآية: «أعلم الله أنه لم يكن افتتانهم بشركهم، وإقامتهم عليه إلا أن تبرؤا منه، وانتفوا منه، فحلفوا أنهم ما كانوا مشركين» وعليه فالفتنة هاهنا بمعنى الشرك والافتتان بالأوثان.

وختم الله الآية بقوله: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي: غاب عنهم[(٥)] ما كانوا يدعونه من دون الله تعالى .

وقيل: إنه عام في كل ما يعبد من دون الله تعالى، فهي تضل عن عابديها يوم القيامة،

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ١٩١ بتصرف.
(٢) في المفردات ص ٣٧٤ بتصرف.
(٣) الجواهر الحسان، الثعالبي ٢/ ٤٥٣.
(٤) انظر: معاني القرآن له ٢/ ٢٣٥ .
(٥) الكشاف ٢/ ١٢.

ولا تغني عنهم شيئًا[1].

وهكذا جلت الآيات موقفًا من مواقف المشركين يوم القيامة، حيث إنهم أنفسهم يتبرأون من الشرك والآلهة، فضلًا عن تبرؤ الآلهة منهم، وتغيبهم عنهم في الآخرة وقت احتياج النصرة منها.

هذا وإن آية سورة «يونس» وإن كانت تتحدث عن نفس موضوع الآية السابقة إلا أنها غايرت في الأسلوب والمعنى فأفادت جديدًا، حيث أعلنت أن التفرقة بين العابدين والمعبودين ستكون بينهم يوم القيامة، وحينئذ يندم العابدون ندمًا عظيمًا حيث عقدوا آمالهم طوال حياتهم على هذا، فإذا بهم يجابهون بما لم يكن في الحسبان أو الميزان.. فالله تعالى يحشر الخلائق أجمعين من كل حدب وصوب إلى أرض المحشر، ثم ينادي الذين أشركوا في عبادتهم، وفي أموالهم فقالوا: هذا لله، وهذا لشركائنا؛ لذا أضاف الشركاء إليهم في قوله: ﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم﴾[2].

واختلف في المراد بالشركاء: فقيل: هم الملائكة، وقيل: هم الأصنام، ورجح الثاني بأن هذا الخطاب مشتمل على الوعد والوعيد، وذلك لا يليق بالملائكة المقربين، والأصنام يخلق الله فيها الحياة والنطق فتنطق بالحقيقة[3].

ثم ينادي الجميع بقوله: ﴿مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ﴾ أي: امكثوا مكانكم، وقفوا في موضعكم، أنتم أيها المشركون وشركاؤكم الذين كنتم تعبدونهم من دون الله من الآلهة والأوثان ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ أي: ففرقنا بين المشركين بالله وما أشركوه به[4].

ولكن كيف تقع الفرقة بينهم وبين الأصنام، والجميع سيحشر إلى النار؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨].

والجواب: أن الفرقة وقعت بتبري كل معبود ممن عبده.

ويقول الإمام ابن عباس رضي الله عنهما: « ينطق الله الأوثان فتقول: ﴿مَا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾، أي: لا نعلم بعبادتكم لنا؛ لأنه ما كان فينا روح، فيقول العابدون: بل قد عبدناكم، فتقول الآلهة: ﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ﴾ [يونس: ٢٩]»[5].

وبمثل هذا قال الإمام مجاهد في تفسيره[6].

وهكذا يتبرأ العابدون والمعبودون

(١) المصدر السابق ٤/ ١٩.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ١٧/ ٨٧.
(٣) المصدر نفسه ١٧/ ٨٧ بتصرف.
(٤) جامع البيان، الطبري ١٥/ ٧٨ بتصرف.
(٥) زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٢٠، ٢١.
(٦) تفسير الإمام مجاهد بن جبر ص ٣٨٠.

بعضهم من بعض، ويندم العابدون على ما ضيعوا من أعمارهم، وما قدموا من أعمالهم، ولات حين مندم.

ويذكر الله تعالى في سورة النحل موقف المعبودين من عابديهم على غرار الآيات السالفة، إلا أن هذا الموطن تفرد عن غيره بالتصريح بتكذيب الآلهة لعابديها، وجاء هذا التصريح مؤكدًا بأكثر من مؤكد، فأكد بإن، واللام الداخلة على الخبر، فضلًا عن اسمية الجملة، وهذه المؤكدات تواردت على شيء واحد فأكسبته توكيدًا فوق تأكيد، وهذا ما ورد في قوله: ﴿فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [النحل: ٨٦].

ولقد اختلف في تعيين الشركاء، فقيل: هم: الأصنام، وقيل: هم الشياطين [(١)].

وأميل إلى الرأي الأول، وعليه فالمقصود من إعادة الأصنام زيادة الغم والحسرة في قلوب المشركين، والأصنام تنطق بكذب المشركين في ادعائهم عبادة الأصنام ويعلنونها صريحة مدوية ﴿إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ فإن قيل: كيف كذبوهم وقد كانوا يعبدونهم؟

والجواب: أن الأصنام لما كانت غير راضية بعبادتهم، فكأن عبادتهم لم تكن عبادة، ويحتمل أن يكون تكذيبهم لهم في تسميتهم شركاء لله لا في العبادة [(٢)].

ثم إن المشركين لما رأوا ذلك من آلهتهم «ألقوا إلى الله يومئذ السلم» أي: «الاستسلام والانقياد لحكمه في ذلك اليوم» [(٣)].

وعلى كل فلن ينفعهم هذا ولا ذاك، فقد وقع قضاء الله، ولا راد لقضائه وقدره، وسبقت كلمته على هؤلاء المشركين أنهم من أصحاب النار.

والقرآن بهذه الردود قد فند شبه المشركين، وأبطل حججهم، وأبطل موروثاتهم العقدية التي ورثوها عن آبائهم... وارتفعت رايات الإسلام على حطام الوثنية، فلله الحمد من قبل ومن بعد.

٢. الأوثان وعابدوها وقود للنار.

لا يقع التبري يوم القيامة بين العابدين وأوثانهم ومعبوداتهم فقط، بل يتعداه إلى أن هذه المعبودات ستكون مع عابديها وقودًا للنار يوم القيامة، وحينئذ لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل، وساعتها يتندمون ويصرخون، ولات حينئذ ينفع الندم والصراخ.

يذكر الله تعالى هذا الموقف في قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٠/ ٩٩-١٠٠ بتصرف.

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل ص ٣٦٣.

(٣) صفوة البيان لمعاني القرآن، حسنين مخلوف ص ٣٥٣.

﴿لَوْ كَانَ هَٰؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٩٩ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨-١٠٠]

عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: لما نزلت ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨].

فقال المشركون: الملائكة وعيسى وعزير يعبدون من دون الله؟ فقال: لو كان هؤلاء الذين يعبدون آلهة ما وردوها، قال: فنزلت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١].

عيسى وعزير والملائكة»[(١)].

فهذه الرواية توضح لنا سبب النزول، والمحاورة التي جرت بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين المشركين على لسان مبعوثهم «عبدالله ابن الزبعرى» في شأن المعبودات التي عبدت من دون الله، والتي من بينها عيسى عليه السلام والملائكة الكرام، حيث فهم أن هؤلاء سيكونون مع عابديهم في النار مخلدين، لكن جاء الرد في الآية التالية بأن هؤلاء الذين عبدوا من دون لا يدخلون النار مع العابدين؛ لأنهم لم يكونوا راضين بعبادتهم لهم، بل الشيطان هو الذي سول لأنفسهم هذا الشرك من دون الله تعالى.

فضلًا عن أن التعبير في الآية بقوله: ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ ولم يقل: «ومن تعبدون» ومعلوم أن «ما» تقع على غير العاقل، فيكون مقصود الآية واقعًا على غير العقلاء.

والمعنى: إنكم أيها العابدون مع الله آلهة غيره ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ أي: وقودها وحطبها.

والحكمة في دخول الأصنام النار، وهي جماد لا تعقل، وليس عليها ذنب، بيان كذب من اتخذها آلهة، وليزداد عذابهم بها؛ فلهذا قال: ﴿لَوْ كَانَ هَٰؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا﴾ وهذا كقوله تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ﴾ [النحل: ٣٩].

وكل من العابدين والمعبودين فيها، خالدون، لا يخرجون منها، ولا ينتقلون عنها[(٢)].

موضوعات ذات صلة:

الإلحاد، الإيمان، الشرك، الكفر

(١) أخرجه الحاكم، واللفظ له، في مستدركه، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الأنبياء، رقم ٣٤٤٩، ٢/ ٤١٦، والطبراني في المعجم الكبير ١٢/ ١٥٣، رقم ١٢٧٣٩.
قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ولم يتعقبه الذهبي.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٣١ بتصرف.